الفَصْلُ الثَّالِثُ

وَقَفَاتٌ
مَعَ الْعِلْمِ وَالْمَعْلُومَةِ

obeikandl.com

obeikandl.com

الوقفة الأولى: القرية الكونية

يتردَّد، الآن، أننا نعيش في قرية، بحيث أصبح من السهل جدًا أن يتَّصل الإنسان المتلقّي بالعالم كله، من خلال جملة من الأجهزة والآلات، والواقع أني سأتبنَّى فكرة أحد الأخوة المعنيِّين في هذا المجال، في أن العالم اليوم يعيش في بيت كبير واحد، وليس قرية. إذ إنك في بيتك، الآن، تملك أن تتعرَّف على ما يدور في العالم، وعلى الهواء مباشرة، وتتَّصل، وتتحاور، وتنهي بعض الأعمال.

وظهرت لذلك مصطلحات، نقلت من أصلها إلى عالم المعلومات، مثل الطرق السريعة الجبَّارة (super-highway)، ونسمع عن شبكات معلومات عالمية، بدأ الناس يُحذِّرون منها، لأنها تعبِّر عن وجهة نظر تحرُّريَّة نحو الحياة والإنسان. ولا بُدَّ من الاستعداد للإنترنت وأخواتها، مما يدرس الآن تعميمُه، عالميًا، من نظم المعلومات. وفي ظلِّ هذا التفجُّر في إيصال المعلومة نجد أن العرب جمعيًا، من حيث اللغة على الأقل منساقون وراء هذه الفورة في صناعة المعلومات، وبالتالي في الحصول عليها، واستخدامِها، أي الإفادةِ منها.

والعرب، في عمومهم، يحكمهم دين، هو الإسلام القائم، كذلك، على المعلومة، فهذا الدين لم يأتِ من فراغ، ولم يكن يومًا من الأيام تجميعًا لانطباعات شخص، حاول التنظير لفهم الحياة والناس، بل قام على كتاب منزَّل، وفسَّرته سنَّة مطهَّرة،

وطبَّقه أناس وهو ينزل. وكان لدى المطبِّقين إشكالات شرعيَّة، أجاب عليها القرآن الكريم والسنة النبويَّة المطهَّرة في حينها. ثم جاء الصحابة والتابعون وأسهموا في تفسير القرآن الكريم، وشرح السنَّة النبوية، ثم ظهرت المدارس الفقهية التي اصطلحنا على تسميتها بالمذاهب، وهكذا، امتدَّت سيول من المعلومات الشرعية، أصبحت مصادر للمعرفة الإسلامية، يتَّكئ عليها العلماء اللاحقون في تحقيق مسائل، وإن كانت في صورها مستجدَّة.

ولا يتوقَّع أن يستغني الخلف عن السلف، في الحصول على المعلومة، والإفادة منها، ثم تطويعها للزمان والمكان، أخذًا في الحسبان أن هناك معلوماتٍ ثابتةً، لا يؤثِّر فيها الزمان ولا المكان.

ثم ظهرت الشروح الأخرى والاقتباسات والملخصَّات والموجزات والتجميعات والمعلومات السريعة، الظاهرة على شكل كتيِّبات مستلَّةٍ من كتبٍ كبار، وذلك تمشِّيًا مع الحاجة من ناحية، واستغلالاً لتقنية المعلومة، التي أتاحت وسائلَ لنشر المعلومات، مطبوعة، أو مسموعة، أو مسموعة مرئية، أو مقروءة على الشاشات، من ناحية أخرى. وكل هذه وسائل لنقل المعلومة الشرعية، تتجدَّد وتتغيَّر مع الزمان. وتظل الحاجة إلى المعلومة الشرعية قائمة.

وتظل التقنية تظهر بالجديد في مجال نقل المعلومة، ممَّا يستدعي استغلال هذه التقنية في المجال الديني، كما تُستغلُّ في مجالات أخرى. ولا فرقَ تقنيًّا بين المعلومة والمعلومة. وهذا قد

يستدعي التفصيل في مجال التعامُل مع المعلومة الشرعية، من حيث توصيلُها إلى المستفيد، الذي هو الآن بحاجة إلى المعلومة الشرعية الصحيحة، التي تعينه على الاستقامة في حياته، وفي علاقته مع ربه، وفي علاقته مع الآخرين.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة الثانية: التثبُّت

هناك مفهومات، تمرُّ مصطلحاتها على بعض الناس، دون الوقوف عندها طويلاً، ومعرفة دلالاتها. ومن أهمِّ هذه المفهومات ما جاء في سياقه آية، أو آيات في كتاب الله تعالى، أو حديث عن المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ. وبالرغم من أنها تمرُّ على المرء كثيرًا، إلا أنها، فيما، يبدو تمرُّ مرورًا سريعًا على أنها آية تُتلى. ولعل آية التثبُّت من هذه الآيات التي تُقرأ في هذا المجال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾. (الحجرات ٠٠٦)، وقرئ فتثبَّتوا. وتحمل مفهومًا رائعًا في التعامل مع المعلومة/الخبر، من حيث كونُه قابلا للتصديق والتكذيب. وهكذا قالت العرب عن الخبر.

ولذا نجد أن بعض الناس يغفلون هذا المفهوم، عندما ينساقون وراء أيِّ معلومة تأخذ طابع الإشاعة، أو التشهير بشخص أو بمؤسَّسة. وتعرض هذه الأخبار على أنها مسلَّمات، وليست مجرَّد إشاعة، بل إنَّ بعض الناس يعرضونها بصورة، وصياغة، توحي للمتلقِّي بالشماتة غالبًا، والتشفِّي أحيانًا، أي أنها معلومات ذات غرض غير موضوعي. وأظن أنَّ الأمَّة تعاني من هذه المشكلة، في مجتمعها الصغير والكبير. ولعلَّ مما يعين على رواجها، مع إغفال مفهوم التثبُّت، هو غياب المعلومة الصحيحة، غالبًا، التي تمارس الردَّ المباشر على الإشاعة، سلفًا، بحيث لا تتيح لها مجالاً للانتشار.

ويأتي ذلك قبل ظهور الخبر غير المتثبَّت فيه، وفي موارده. ذلك أن تكذيب الخبر، بعد وروده، لا يأخذ المساحة التي أخذها الخبر نفسه، في قبوله ابتداءً، لاسِيَّما إذا كان الخبر يوافق هوىً في النفس، لدى ناشريه أو متلقِّيه.

ومن أطيب ما يمكن أن يسمعَه المرء من تلقِّي الخبر أن يقول المتلقِّي: نتثبَّت أوَّلاً، ثم نقبل أو نرفض. وهذا هو ديدن السلف الصالح، فيما يصل إليهم، دون مبالغة في ذلك، أو غلوٍّ فيه. وكان **أبو بكر الصديق** – رضي الله تعالى عنه – يقبل أيَّ شيء يرد عن المصطفى – عليه الصلاة والسلام – فيصدِّقه، ومع هذا فإنه – رضي الله تعالى عنه – كان يشترط لنفسه أن يتثبَّت من أنه جاء عن الرسول ﷺ. ومعنى هذا أنه لم يُغفل جانب التثبُّت، فيما ينقل له عن المصطفى ﷺ. ونحن نحتاج اليوم إلى التثبُّت في قبول الأخبار أكثر من أي وقت مضى، ذلك أن مصادر الأخبار قد تعدَّدت، وتنوَّعت، وتمايزت، وأصبحت ذات انتماءات، وتخدمُ أغراضًا خاصَّة.

وليس المرء بحاجة اليوم إلى أن يندمَ على ظُلمه، عندما يصيب أحدًا بجهالة، لاسِيَّما أنه يملك الابتعاد عن هذا المزلق، بالتثبُّت الذي يحميه، ويحمي غيره. والدعوة، هنا، إلى التركيز على مفهوم التثبُّت في المجالس، وفي خطب الجمعة، وفي الإعلام، وفي أي مناسبة، رغبةً في سدِّ الطريق على إشاعة الأخبار الخاطئة، ورغبة

في ترسيخ هذا المفهوم الرائع في حياة الأمَّة، فيما يتعلَّق بموقفها من الخبر.

ولعل من المناسب، أحيانًا، عدم الولوج المباشر فيما يتناقله الناس من أحاديث المجالس، لاسيَّما عند التعليق على حدث محلِّي أو إقليمي أو دولي، ذلك أن هذه الأحاديث غالبًا ما تفتقر إلى المعلومة الدقيقة، ويلاحظ على روَّادها حرصهم على إقحام أي جديد حول الحدث، بحسب رغبة المتحدِّث في توجيه دفَّة الحديث، في مصلحة الحدث، أو خلاف ذلك. والسبب في الرغبة في العزوف عن الخوض في هذه الأخبار هو رواتها، إذ إن غياب المعلومة الصحيحة يفتح مجالا واسعًا للشائعات، التي لا تخدم المصلحة في غالب الأحيان. وحيث إننا مطالبون دائمًا بالتثبُّت من المعلومة قبل إشاعتها، فإنها أمانة علينا ألا نتسرَّع في نشر معلومة غير ثابتة.

ويكثر الحديث، هذه الأيام، عن الحدث الذي هزَّ الجميع (٢٠٠١/٩/١١م الموافق ١٤٢٢/٦/٢٦هـ)، وجاء هذا التركيز على حساب الأخبار الأخرى، مثل الحدث الإقليمي الذي لا يزال يحصد العشرات من أبناء **فلسطين** المحتلَّة، في غيبة من التركيز الدولي على ما تعارف عليه العالم بالانتفاضة، باسمها الجديد: **انتفاضة الأقصى**.

وحيث ما تكون تجد الناس، على اختلاف مستوياتهم، يخوضون في هذا الحدث الذي سيطر على أذهان الناس، لهوله ولغرابته، إلى درجة جعلت بعضًا من الناس لا يزال في حالة ذهول.

وليس هذا تقليلا من شأن هذا الحدث، فهو حدث لا إخال اثنين يختلفان على ما خلَّفه في النفوس الباقية، ناهيك عن النفوس التي كانت ضحية له. إلا أن الوقفة، هنا، ربَّما تذكِّر في هذا الجدل القائم، الآن، الذي امتدَّ إلى ما وراء الحدث، مما كان مجالاً لوقفة لاحقة بعنوان: الأسباب، دعوت فيها إلى الحكمة في النظر إليه، وعدم التسرُّع في إطلاق الأحكام، والتعلُّق بما يرد من روايات غير ثابتة. وأحسب أن الحقيقة سوف تظهر يومًا ما، مع صحوة الناس من هول الحدث.

ونحن نجالس كثيرًا، ونسمع كثيرًا، ونتحدَّث في هذه المجالس كثيرًا، ونتناقل الأخبار والروايات، ولا بأس في هذا من حيثُ الأصلُ، ألا أننا نواجه أحيانًا إطلاقاتٍ في الأحكام أو الحقائق، وكأنها من المسلَّمات، التي لا تقبل النقض. وإن صحَّ هذا عند بعض الناس، وهو غير صحيح عند كل الناس، فإنه لا يصحُّ، من باب أولى، في المجالس، التي تضمُّ أولئك المتعلِّمين والمثقَّفين والمفكِّرين، المطالَبين، دائمًا، بالتثبُّت من المعلومة التي يتلقَّونها، ثم يلقُونها على الآخرين. ولا يعني هذا الحجرَ على تلقِّي المعلومة، أو إلقائها. ولكن التلقِّي والإلقاء مشروط دائمًا بالصحة في التلقِّي، والدقَّة في نقل المعلومة إلى الآخرين، لاسِيَّما في زمانٍ اختلفت فيه أشكال المعلومة، واختلفت مصادرها، التي تُستقى منها المعلومات.

وليس من المنتظر من كل متلقٍّ لمعلومة ما، مهما كانت أهميَّتها، أن يسارع بالتصديق بها والتسليم بمحتواها، فيجعلها

مجالا للسبق في الطرح في المجالس على أنها مسلَّمة، أما طرحها من باب مناقشتها والتحرِّي عنها والحوار حولها، فأمر آخر، وشأن يسير. أقول هذا وأنا أسمع أحيانًا عدم ارتياح بعض المعنيِّين من هذا الطرح المتسرِّع في مجالات النقد لمسؤول من المسؤولين، أو لمصلحة من المصالح العامّة والخاصّة، وهم يملكون المعلومة الصحيحة التي يمكن أخذها منهم مباشرة، قبل نشر المعلومة المغلوطة التي استهوت الناشر، وجعل منها مجالاً للنقل إلى الآخرين، من باب الإثارة. والآخرون، بدورهم، ينقلونها إلى غيرهم، وهكذا. وعند الرجوع إلى المصدر الأصلي للمعلومة المغلوطة تجده استقاها من مصدر آخر، لم يتثبَّت في تلقِّيها، ولم يتثبَّت في نقلها.

ونحن مطالبون، من حيثُ المبدأ، بالتثبُّت من النبأ أو الخبر، والتبيُّن منه، بنصِّ القرآن الكريم، الذي يتعامل مع المعلومة على أنها خبر، يحتمل الصدق والكذب، وإنما تصدِّقه أو تكذِّبه القرائن من حوله.

المجالس:

وأعجب لأحاديث المجالس، التي يرغب الناس في قضاء وقتهم فيها، إذ إن كثيرًا منها لا تزال تفتقر إلى المصداقية، وتعتمد على قلَّة التثبُّت في نقل المعلومة، بل والرغبة في إشاعتها لمجرد سماعها، لاسيَّما إذا كان فيها لمزٌ لأحد، أو غِيبةٌ لآخر. وربَّما شاعت هذه المعلومة غير الموثَّقة، بحُجَّة الرغبة في الإصلاح العامّ، بحكم

الانتماء المباشر إلى المجتمع المراد إصلاحه، في الوقت الذي تظهر عليه علامات التقصير في هذا المجتمع، فتكون إشاعة المعلومة بهذه الصورة ذات هدف نبيل، ولكنها قد تخلو من الصواب في الوسيلة، مهما كان نبل الغاية. كما أنها قد تخلو من الصواب، من حيث كونُها معلومةً خبرًا، تحتمل الصدق والكذب. وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذِبًا أن يحدُّ بكلِّ ما سمع».[1]

والمهمُّ أن تصل المعلومة إلى المعني بها، بدلا من أن تكون مجالا للحديث في المجالس، يتناقلها الناس من مجلس إلى مجلس. وربَّما خرجت في البدء من صاحبها الأوَّل بحسن نيَّة، ثم أخرجها غيره في مجلس آخر، بل في مجالس أخرى، بسوء نيَّة، وبرغبة في إشعار الآخرين بالقدرة على جلب المعلومة، ثم تكون النتيجة وصمَ المعني بها، **أوَّلاً**، بالإهمال والتقصير، **وثانيًا** قلَّة المبالاة، وقلَّة الاهتمام.

آفة الأخبار:

وقد وصلتني معلومة تعنيني مباشرة، نقلها واحد إلى آخر له به صلة، والناقل الأوَّل نقلها عن واحد قبله، أحسب أنه مخلص في نقله، لكنِّي أحسب، في الوقت نفسه، أنه قد جانب الصواب في

(١) رواه مسلم.

الجهة التي نقل إليها المعلومة، إذ يبدو لي من الطريقة التي نقل بها الخبر إلى أن ناقلها الأوسط قد سمعها من ناقلها الأوَّل في أحد المجالس، ثم نقلها عنه إلى الناقل الثالث، الذي نقلها بدوره إليَّ عبر الهاتف.

وأحسب أن الناقل الأوَّل، رغم ثقتي بإخلاصه في الاهتمام بالمعلومة نفسها ورغبته في الإصلاح، لم يقف على المعلومة ذاتها بنفسه، بل ربَّما نقلها إليه أحد العاملين معه، بدافع الإصلاح، يحدوه الإخلاص كذلك. وعندما تثبَّتُّ من المعلومة التي مرَّت بأربعة مصادر، أوَّلية وثانوية، تمثَّلت أمامي هذه المقولة العظيمة في ثقافتنا العلمية من أن «آفة الأخبار رواتها». فلم تكن المعلومة التي وصلتني، عبر أربعة مصادرَ، دقيقةً كلَّ الدقة المطلوبة في نقل المعلومة، إذ إنها ربَّما بُنيت على انطباعة أوَّلية، في مشهد واحد، لإجراء خاصٍّ جدًا، ثم عُمِّمت على كل الإجراءات المتَّبعة في مجالها.

ولا يعني القارئ، هنا، ذكر المعلومة بعينها وظروفها، إذ إن الطرح هنا ينصبُّ على التثبُّت من المعلومة، أو النبأ، أو الخبر، قبل الدخول في فكرة إشاعته، ناهيك عن جعله موضوعًا لحديث المجالس!

ويقودُ هذا الطرح إلى التعرُّض لحديث المجالس، فيما يتعلَّق بمجال العاملين في جهاز من الأجهزة، لاسِيَّما إذا كان هذا الحديث مبنيًا على اتِّهام الأشخاص في ذممهم، ويشيع ذلك في

المجالس، دون اللجوء إلى التثبُّت من هذه الاتِّهامات، والمجالس في غنىً عن ذلك، إذ إن مجالات المجالس يمكن أن تشغل بغير هذا، مما يخرج منه الحاضر بنتيجة تنعكس على حياته، وبعدَ مماته.

ولا بُدَّ من اعتبار المتَّهم بريئًا حتى تثبت إدانته، بدلا من اعتبار الشخص مدانًا حتى تثبت براءته. وهو طرح شرعي قبل إن يكون قانونيًا، ولكن العبرة في تطبيقه في حياتنا اليومية، حتى في أصغر الأمور التي تجري بين الناس، فما بالكم فيما إذا كان الأمر يتعلَّق بذمم الناس وأعراضهم. ونحن بشر نخطئ، وقد تجرفنا العاطفة، حينما نسمع من طرف واحد، والأصل عندنا أن نسمع من الطرف الثاني. وهذا يتردَّد كثيرًا. والجميل فيه عند ترديده أنه ينبِّه الغافلَ الذي جرفته العاطفة، فقفز إلى النتيجة، وربَّما بنى على ذلك قرارًا ما.

ومهما يكن من أمر فإننا بشر نتعرَّض للخطأ في حياتنا العامّة والخاصّة، وخير الخطَّائين التوَّابون،[1] ومن التوبة إعادة الحقوق إلى أصحابها، وليس فينا من يصرُّ على أمر يتبيَّن فيه أنه غير صواب، فالصواب هو ضالَّتنا، ومتى ما اقترن مع الصواب الإخلاصُ، دلَّ ذلك على حسن العمل وقبوله. وهذا يقتضي استمرار المرء في تقويم ذاته، وقبول تقويم الآخرين له، ولما يعمل، ولكن

(١) من منطوق حديث المصطفى محمد بن عبدالله ﷺ: «كل ابن آدم خطَّاء وخير الخطَّائين التوَّابون». أخرجه الترمذي والدارمي وابن ماجه وأحمد ابن حنبل.

بالطرق السليمة المباشرة البعيدة عن القيل والقال، وتصدُّر المجالس، وشغلها بأعراض الناس. ثم قبل ذلك التثبُّت من المعلومة، التي يُراد التقويم من أجلها، حتى تكون الحجَّة قويَّةً. ومع هذا كله فعلينا أن نضع في أذهاننا أن الخلاف يحصل في شتَّى الحالات، التي يكون فيها تعامُل بين طرفين أو أكثر. وعلينا أن نقرَّ كذلك أن التقصير لازمةٌ من لوازم بعض الناس، بالاكتساب لا بالفطرة، وإلا لأصبح الأمرُ قُصُورًا، لا تقصيرًا. ولا يعاتب القاصر على قصوره، ويعاتب المقصِّر على تقصيره.

ولعلنا نوفَّق في أن نجعل هذا الخلاف خلافًا في العمل نفسه، وليس خلافًا شخصيًا، إلا أن الواقع يؤكِّد، دائمًا، على أن الخلاف في العمل يتحوَّل، دائمًا، وليس غالبًا، إلى خلاف شخصي. فندخل، عندها، في النوايا والمقاصد، التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

--- --- ---

الوقفة الثالثة: الانطباعية

يزور أحد المهتمِّين، من غير المسلمين، ديار المسلمين، ليكتبَ عن هذه الديار. وكتاباته هذه تقوم على انطباعات (Impressions)، حصل عليها من معايشته للمجتمع، الذي عاش فيه ردحًا من الزمن. وهذه الانطباعات تسجَّل، من قِبَلِه، على أنها أحكام عامة، وتعمَّم على الإسلام والمسلمين، في مجالات السياسة، والأخلاق، والمعاملات التجارية، والأنماط الاجتماعية. وإذا لم يأتِ المستشرق ليعيش بين المسلمين، فيكتب عن الإسلام، فإنه يغوص في الكتابات التي ركَّزت على القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي إلى اليوم، ليأخذ منها سلوكيَّات المسلمين، فيقدِّمها للغير على أنها الإسلام.

وفي بطون الكتب أمثلة من ممارسات جاهلة، يقوم بها أناس جَهَلة. وهي ممارسات لا تمتُّ، من قريب أو بعيد، إلى العقل والدين والذوق بصلة، مثل ذلك المعتوه الذي يبقر بطنه، فيمشي في الشارع، وأحشاؤه تتدلَّى أمامه، وقد وضعها على طبق يحمله، ليلفت بها الانتباه، في زمن قلَّ فيه الانتباه.[1] ومثل ذلك التاجر الذي يبيع الناس أفضل البضاعة، يضعها على ظاهر الوعاء، وفي أسفله يكمن الحشف والرديء من الحب، أو الثمر، مما يناقض ما هو

(١) إدوارد سعيد. **الاستشراق: النشأة، السلطة، الإنشاء/** تعريب كمال أبو ديب. – ط ٦. – بيروت: مؤسَّسة الأبحاث العربية، ٢٠٠٣م. – ٣٦٦ ص.

openkandil.com

أعلى الوعاء. ومثل ذلك المتلبِّس بالدين، الذي يظهر للناس أنه من الصالحين، ثم يمارس أعمالاً لا يمارسها أنصافُ الصالحين، وغيرها من الأمثلة. وهذه المواقف، من المشاهدات، هي المجال الخصب لمن يحاولون تتبُّع عورات الناس، ليعمِّموا هذه الأخطاء، ويجعلوها حجَّةً على الدين، الذي لم يصل في نفوسهم إلى مستوى ردع الناس عن هذه الممارسات.

ولا تقتصر المشاهدات هذه على الممارسات في المجتمع المسلم على المجتمع المسلم نفسه، بل، بحكم الخلفية الثقافية للمستشرق، تجده يتلمَّس معاملة المسلمين، على أرض الواقع، لغير المسلمين، من الأقليات الموجودة في المجتمع المسلم، فإن كانت سيئة فإن هذه فرصةٌ للتعميم على المسلمين جميعًا، ماضيًا وحاضرًا. ولعلَّ من أبرز ما يمكن الاستشهاد به في مقام الانطباعية هذا ما قامت به المستشرقة الإنجليزية **تساريس وادي**، المولودة في **أستراليا**، والتي نشأت في **القدس**، التي تشهد نشاطًا للديانات السماوية الثلاثة، اليهودية والنصرانية والإسلام، فكتبت عن ذلك في كتب ومقالات، منها **قوافل بعلبك**، و**العقل المسلم**، ولم تقتصر في إقامتها على **القدس**، بل جالت في **الملايو** و**إيران** و**نيجريا** و**مصر**.

وفي كتابها **العقل المسلم** نقلات انطباعية عن عقليَّة المسلمين، في الوقت الذي ألَّفت فيه هذا الكتاب، وهو النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، الرابع عشر الهجري، الذي لا

يقدِّم صورة طيِّبة عن المجتمع المسلم، بحكم القرب من الانفكاك من التبعية الاستعمارية، وظهور نزعات ونعرات، كان أكبر همِّها ألاَّ يكون للإسلام أثرٌ في العهد الجديد للمجتمع الناهض من ربقة الاستعمار. ولذا فإن الكاتبة لم توفَّق في إعطاء صورة موضوعية للعقل المسلم، وإن بدا في كتابها وقفاتٌ إيجابية، تُعَدُّ ومضاتٍ في طريق مظلم. وقد وقف الأستاذ **عبدالجليل شلبي** وقفاتٍ مسهبةً، مع هذا الكتاب، ومع الكاتبة في كتاب له بعنوان: **صور استشراقية**.[1]

والانطباعية ليست مقياسًا لأي مجتمع من ناحية، ثم إنها، بشكل أوضح، ليست مقياسًا للدين والثقافة، لأن الدين، كما نعلم، حُجَّةٌ على الناس، وليس الناس حُجَّةً على الدين. والمعادلة التي ينبغي أن ترسخ في الأذهان، دون أن تؤثِّر عليها الكتابات الخارجية، والداخلية أحيانًا، هي أنه متى ما قرُب الناس من الإسلام، استطاعوا تمثيلَه على الواقع، ومتى ما بعدوا عنه، بعدوا عن تمثيله على الواقع، ومع هذا كلِّه يظل الإسلام حُجَّةً على الناس، وليس العكس، وعليه فالانطباعات لا تدخل في الحجِّية، وليست مقياسًا ثقافيًا.[2]

---

(١) عبدالجليل شلبي. **صورٌ استشراقية**. – القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٦هـ. – ٢٢٤ ص.

(٢) بحثتُ في الانطباعية لدى المستشرقين، على أنها مصدر من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين. انظر: «الفصل الثالث: رحلات المستشرقين مصدرًا من مصادر المعلومات عن العرب والمسلمين». ص: ١١٧ – ١٨٣.

=

وديار المسلمين، عدا الحرمين الشريفين، مفتوحة مشرَعة للرحَّالة غير المسلمين، ومبدأ الأسوار والبوَّابات مبدأ لم يعد له مجال في التاريخ الحديث. ولذا كان العالَمُ الإسلامي مفتوحًا للجميع، من التجَّار، والعاملين، والدارسين، والممثِّلين الدبلوماسيين، والمكتشفين الجغرافيين، وكل هؤلاء واجهوا المجتمع المسلم من منطلق ثقافي، مختلف عن الثقافة السائدة في المجتمع المسلم. ونحن لا نملك أن نغلق الأبواب أمام الرحَّالة، ولكننا نستطيع أن نعمل على إعطاء صورة صادقة، يحملونها معهم عن هذه الأمَّة، التي تترجم الإسلامَ اعتقادًا وسلوكًا.

وحيث إن المجتمع المسلم مفتوح للجميع، وإن فكرة الأسوار والحصون والقلاع كانت أسلوبًا قد مضى، فإن أنواعًا من الرحلات قد طرقت هذا المجتمع، ويمكن إجمال هذه الأنواع، بحسب أهدافها، على النحو الآتي:

- **أهداف علمية**: قصدُها التعرُّف على المنطقة، ودراستها من نواح عدَّة، جغرافية، واجتماعية، وبيئية، وطبيعية، وتجارية، ونحوها، من أجل التعامل مع هذا المجتمع، واتِّخاذ موقف واضح منه، ويدخل في هذا رحلات المستشرقين.

= في: علي بن إبراهيم الحمد النملة. **الاستشراق والدراسات الإسلامية: مصادر الاستشراق والمستشرقين ومصدريَّتهم**. – الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.- ٢٦٢ ص .

• **أهداف ثقافية**: وتدخل فيها رحلات المستشرقين والحملات التنصيرية، التي سعت إلى التعرُّف على المجتمع، رغبةً في التأثير الثقافي عليه، وجلبه إلى أحكام **الإنجيل**، وغالبية هذه الرحلات جاءت بمنظور إنقاذي لأمَّة تتخبَّط في الظلام، من وجهة نظر المنصِّرين. وتدخل فيها الرحلات السياحية، التي تهدُف إلى التعرُّف والتغيير.

• **أهداف اجتماعية**: هدفها التعايش مع المجتمعات، بدافع الإعجاب بها، وما تتَّسمُ به من بساطة وطيبة ووضوح ونقاء، قلَّ أن يكون متوافرًا في المجتمعات التي يقدُمون منها، بالإضافة إلى الرغبة في التغيير في نمط العيش، مما قد يصل إلى اعتناق الثقافة نفسها، أي اعتناق الإسلام والانخراط في المجتمع المسلم.[1]

• **أهداف سياسية**: غرضها توطيد العلاقات، والتقرُّب من القيادات العربية والإسلامية، رغبة في الحصول على دعم هذه الدول، في مسيرة تلك البلاد السياسية، في خضم التكتُّلات القائمة والمعروفة.

وهناك أهداف أخرى، قد تتَّضح في سياق هذا الموضوع، إلا أنه من المهمِّ النظر إلى الرحلات من خلال أهدافها، التي تُبيَّن أن بعضها أهدافٌ طيِّبة نزيهة، وبعضها أهدافٌ سيِّئة غير نزيهة. وليس من

(١) انظر: هاني المبارك وشوقي أبو خليل. **الإسلام والتفاهُم والتعايُش بين الشعوب** – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م. – ١١٢ ص. – (سلسلة حوارات لقرن جديد).

الموضوعية أن ننظر إليها على أنها، جميعها، نزيهة، أو أنها، جميعها، غير نزيهة، وإن ذهب البعض إلى أن معظم هذه الرحلات تحمل وراءها مقاصد غير طيِّبة. وجاء هذا الانطباع من خلال الظروف التي مرَّت بها المنطقة، كالاستعمار، والرغبة في استمرار التأثير عليها.

وقد أتاح هذا كثيرًا من المساحة لسوء الظن بالجميع، ما داموا قد قدموا من الغرب. ويؤيِّد ذلك أن هذا الشعور ليس بقوَّته في النظرة إلى القادمين من الشرق الأقصى. وبهذا يمكن القول إننا نعاني من أزمة ثقة، وعقدة سوء الظن في الجهة الغربية، مع أن الأصل عندنا حسن الظن في الجميع، حتى يتبيَّن لنا خلاف ذلك، دون الدخول في النوايا، التي لا تظهر لنا.

البُعد الرابع:

وقد ظهر كتاب باللغة الإنجليزية، يحتاج إلى ترجمة دقيقة لعنوانه: At Home in the Fourth Dimention، قبل ترجمته كله، إذ إن العنوان نفسَه ملفتٌ للنظر، ولا يوحي في الوقت نفسه إيحاءً قويًا بالمضمون. فهو من العنوانات الأدبية الموحية بالتحوُّل الذي حصل للمؤلِّفة **مريم مطر** (زوج القبطان **أحمد مطر**، مدير عام الخطوط الجوية العربية السعودية السابق)، وهي أمريكية، أحبَّت العربَ وجزيرةَ العرب، عندما عملت فيها مدةً من الزمن.[1] بل ربَّما أقول من

(١) Merriam Matter. At Home in the Fourth Dimention.- London: Immel publishing limited, 1994.- 208 p.

القراءة الأولية للكتاب: إنها عشقت العرب وعاداتهم وتقاليدهم، وتعلُّقهم بالله تعالى، في جميع شؤونهم، في السرَّاء والضرَّاء، مما أدَّى بها إلى اعتناق الإسلام عن قناعة، كما ظهر من كتابها، الذي يبرز عشقها للمجتمع العربي المسلم البسيط، الذي كان سائدًا في السبعينات والثمانينات الهجرية، الخمسينات والستينات الميلادية. والكتاب يحتاج إلى وقفات متعدِّدة مع التواصل في قراءته، والرغبة في نقله إلى اللغة العربية، في أسرع وقت ممكن، للإفادة منه.

وهناك نوع من الكتابات حول العالم الإسلامي، كتبها الرحَّالة على مختلف فئاتهم وتخصُّصاتهم واهتماماتهم، بل ودوافعهم التي من أجلها جاءوا إلى المنطقة، ومن أجلها كتبوا ما كتبوه. وغالبًا ما تشتمل هذه الكتابات على انطباعات الرحَّالة حول مجتمع ضيِّق من المجتمع المسلم الكبير، ثم يسعى الكاتب إلى تعميم هذه الانطباعات، التي بُنيت على مشاهدات في الشارع الصغير، في ذلك المجتمع الضيِّق. وتعمَّم هذه الانطباعات على الإسلام نفسه، إذ يؤخذ الإسلامُ كله من خلال هذه الممارسات، التي يقوم بها أفراد في مجتمع صغير، فيُحكم من خلاله على الدين نفسه.[1]

---

(١) انظر مثلاً: إدوارد وليم لِن. **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: مصر ما بين ١٨٣٣ – ١٨٣٥**/ ترجمة سهير دسُّوم. – القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ/١٩٩١م. – ٥٩٢ ص. وفي حياة هذا المستشرق انظر: عدلي طاهر نور. **المستشرق الكبير إدوارد وليم لين: حياته ومؤلَّفاته**. – القاهرة: (مطابع دار النشر للجامعات المصرية)، ١٩٧٣م. – ٢٩٢ ص.

ونحن نعلم مدى ما وصلت إليه بعض المجتمعات من البدع والخرافات الفردية والجماعية، التي تحجُب حقيقة الإسلام عن النظر، وتسيء إلى فهم الإسلام، فهمًا يؤدِّي في النهاية إلى بروز صورة واضحة وصحيحة، تُنقل عن الإسلام من خلال الانطباعات، التي يخرج بها الرحَّالة من غير المسلمين. وحيث إن كتابات الرحَّالة تتفاوت في طرحها، بحسب اهتمامات الكاتب ودوافعه وأهدافه، فإنه ليس من العدل أن نقول إن جميع هذه الكتابات جاءت على وتيرة واحدة، أو أدَّت إلى إعلامٍ للغير متساوٍ. فانطباعات العلماء والدارسين تختلف عن انطباعات المنصِّرين، وذوي الغايات الاستعمارية، وذوي النوايا العدوانية. ولذا فإن الحكم ينبغي أن يكون تفصيليًا، بحسب قوة الانطباعات السلبية، وقربها من الحقيقة الإيجابية. ومن المهم تكرارُ الوقوف مع الإنتاج الفكري للرحَّالة الغربيين من مستشرقين وغيرهم، للتعرُّف على موقف هؤلاء من ثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا.[1]

--- --- ---

(١) يمكن لمن يرغب في المزيد من الاطلاع على موضوع الانطباعية العودة إلى نماذج من كتب الرحَّالة الأجانب إلى البلاد العربية الإسلامية، وما كتبه المسلمون عن ذلك.

الوقفة الرابعة: الجهل

قالت العرب: «من جهل شيئًا عاداه»، ولم تثبُت هذه المقولة في وحي منزل، أو ذكر محفوظ، وعليه فإنها قابلة، مثل غيرها، للأخذ والرد، على اعتبار أن القاعدة عندنا أن كلاً يؤخذ من كلامه ويردُّ إلا المعصومَ **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى. ولذلك فإن هذه العبارة تؤخذ من هذا المنطلق، فيصدِّقها الواقع كثيرًا. وعند تطبيقها على ما يدور، الآن، في الإعلام الأجنبي، لاسِيَّما الغربي منه، نجد أنها منطبقة، ذلك أنه على الرغم من تقدُّم صناعة الإعلام بعامَّة، والصحافة بخاصَّة، ورغم استخدام التخصُّصية في نشر المقالات والأخبار، ورغم وجود مراكز معلومات وتحليلها، وقواعد ضخمة لذلك، ورغم وجود محلِّلين صحفيين وإعلاميين، رغم ذلك كله، إلا أنه يظل هناك قدر ملموس من الجهل بالدين الإسلامي، وبالبلاد الإسلامية عمومًا، **المملكة العربية السعودية** (نموذجًا)، التي تطبِّق هذا الدين بوضوح تامٍّ، من خلال ما تظهره الأنظمة فيها.

ثم تتدخَّل بعد ذلك عوامل، وَجدتْ أرضًا خصبة لها في المجال الإعلامي، كالتأثير اليهودي على الإعلام، الذي سبق التنويه بأنه، مع ما يقال عنه، يظل يدخل في حيِّز الأوهام التي أعطت الموضوع أكثر مما يحتمل في هذا التأثير.[1] يقال هذا وقد سرى

(١) انظر: علي بن إبراهيم الحمد النملة. **الشرق والغرب: منطلقات العلاقات ومحدِّداتها**. — ط ٢. — الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م. — ١٧٣ ص.

الجهل إلى دور العبادة، وفي بعض البلاد الغربية، حيث يُكتب على لوحة الإعلانات البارزة في إحدى هذه الدور، بل في مقدِّمتها الظاهرة للعابرين، راكبين أو راجلين، أن سيدنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ يدعو إلى القتل، هكذا، وتقارِن هذه الدار دعوة المصطفى – عليه الصلاة والسلام – إلى القتل بدعوة **عيسى ابن مريم** – عليهما السلام – إلى نبذ القتل، من منطلق الوصايا العشر. وكأن سيدنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ جاء ليكون مخلاً بهذه الوصايا، التي يأتي تحريم القتل في مطلعها. وكأن سيِّدَنا **محمَّد ابن عبدالله** ﷺ، عند من يجهل رسالته، لم يأتِ مكمِّلا للرسالات السماوية. وكأن سيِّدنا الحبيب – عليه الصلاة والسلام -، عند مَن يجهل رسالته أو يتجاهلها، قد جاء بكل هذا من عنده.

وهناك من يدعو إلى اتِّباع أسلوب **الاستغراب**، من منطلق أن نعامل أولئك القوم بمثل ما يعاملوننا به. وهذا، وإن صدق في الأعراف الدبلوماسية، ونحوها، من منطلق المعاملة بالمثل، فإنه لا يصدُق، بحال، في مجال النظرة إلى القوم، من منطلق دينهم وأنبيائهم ورسلهم. ذلك أنه من تمام إيماننا، نحن المسلمين، أن نؤمن بهذه الأديان، وأولئك الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام –.[1]

(١) انظر: علي بن عبدالرحمن الدعيج. (الاستغراب) وإمكانية تدريسه في الجامعات السعودية. – **الجزيرة الثقافية** ع ١١٧ (١٤٢٦/٦/٦٢هـ/ ٢٠٠٥/٨/١م). – ص ١٤.

الاستشراق:

والتطرُّق للاستغراب يعرِّج بنا على **الاستشراق**، الذي يكوِّن الآن قاعدةً من قواعد المعلومات عن الإسلام والمسلمين، ويستقي منه الإعلام الغربي هذه المعلومات، لاسِيَّما فئة من المستشرقين الذين سيَّسوا الاستشراق، وطوّعوه للإعلام، وسطَّحوا المعلومة، فيما يخدم هذا التوَجُّه الإعلامي، في حالة من الحالات التي يمرُّ بها العالم، ويكون المسلمون طرفًا فيها بإرادة، أو دون إرادة، أحيانًا.[١]

ولعلَّ أبرز الأمثلة لذلك المستشرق البريطاني **فرِد هاليداي**، الذي ما سمع بالأحداث الأخيرة (٢٠٠١/٩/١١م الموافق ١٤٢٢/٦/٢٦هـ)، حتى سارع في تجميع مقالات علمية، عنونَها: **ساعتان هزّتا العالم**، وصدر باللغة الإنجليزية، في السنة نفسها. وبعض هذه المقالات تعود إلى سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. فلم يعكس العنوان محتوى الكتاب، سوى المقالة الأولى، التي شغلت عشرين صفحة من الكتاب، (٣١ – ٥١).[٢] ورغم أن المؤلِّف قد أخرج أربعة

---

(١) انظر: حسن أوريدة. **الاستغراب أو نظرة الآخر إلى الغرب**. – محاضرة ألقيت في افتتاح نشاط مؤسسة إدمون عمران المليح، ١٤٢٥هـ. وهي قراءة لكتاب كل من أفياشي مارغليت وإيان بوروما: **الاستغراب: الغرب في عيون أعدائه**.

(٢) فريد هاليداي. **ساعتان هزَّتا العالم: ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، الأسباب والنتائج**/ ترجمة عبدالإله النعيمي. – بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٢م. – ٢٥٦ ص. وظهر الكتاب باللغة الإنجليزية عن الدار نفسها:

Fred Halliday. Two Hours that Shook the World.- London: Saqi Books, 2002.- 256 p.

عشر كتابًا، وهذا هو الكتاب الخامس عشر، بالإضافة إلى المقالات العلمية والصحفية، إلا أن هذا لا يسوِّغ القفز إلى إخراج كتاب علمي عن أحداث، لم تتَّضح الرؤية حولها بعدُ.

هذه الفئة من العلماء بنَتْ معلوماتِها على حكم مسبَق، وعلى جملة من الانطباعات، التي لم يفلح المزيد من القراءات والبحث في خلخلتها، بل إن القراءات كانت تتوجَّه إلى تعميق هذه الأحكام والانطباعات. ولا يوضع الدكتور **فرد هاليداي** كبشَ فداء، بل إنه قد يكون من أقرب العلماء إلى المنطقة، فهو يتردَّد عليها بين حين وآخر، في **مصر** و**تركيا** و**إيران** و**المملكة العربية السعودية**، و**جزيرة العرب** بعامَّة، وكتب عنها كلَّها، وزار معظمها، وكان محلَّ الترحاب من أهلها الطيِّبين، الذين يكرمون الضيف، ويتوقَّعون أن تبدأ معه علاقة حميمة، وما أن يعود إلى بلاده حتى يكيِّف ما لقيه، وما حصل عليه من معلومات لذلك الحكم المسبق والانطباعات.

وهذا الوضع، بقدر ما ينطبق على المستشرقين، ينطبق كذلك، وبصورة فاضحة أكثر، على الإعلاميين الغربيين، الذين يخرجون من جولاتهم بتقارير لا تعكس، بالضرورة، الواقع الذي عايشوه أثناء زياراتهم، ما عدا أولئك الإعلاميين الموضوعيين، الذين يجوبون الأرض، بحثًا عن الحقيقة العلمية، في البيئة والجغرافيا. وهم مُستثنون، بُعدًا عن تعميم الأحكام على الجميع.

وقد يُفهم من هذا أن اللوم، برمَّته، يلقى على هؤلاء، ولا بأس في تعديل هذا الفهم، حينما يُلقى شيءٌ من اللوم، يقلُّ أو يكثر، على المنطقة نفسها، التي لا يظهر أنها قد وفِّقت، التوفيق المطلوب، لتقديم الصورة الحقيقية لثقافتها ومُثُلها ومبادئها وواقعها، ومدى تطبيقها على الواقع لهذه المُثُل والمبادئ والقيم. أدَّى هذا الوضع إلى التعلُّق بما يكتبه بعض الكتاب الغربيين عن بلادنا، من منطلق نقدي، يقوم على اختلاف في الفكر. ومن ذلك ما نقل على لسان **نعوم تشومسكي** في كتاب هو تجميع لعدد من المقابلات الصحفية بعنوان **الحادي عشر من أيلول**، مترجمًا ترجمةً عُجلى.[1] وكل الكتاب يصبُّ في البحث عن أسباب حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م الموافق ١٤٢٢/٦/٢٦هـ. إلا أنه يبدو من طرحه أنه نحا نحوًا فكريًا، قد لا نتَّفق معه فيه، وإن كان قد يُرضي هوىً في النفس، عند أولئك الذين يبحثون عن مثل هذا الطرح، إلا أنه قد عمد إلى المقارنة بين ما عملته دول الغرب، وما عُمل لها. وهي مقارنة تثير الانتباه دون شكٍّ، كما أنها تنطق بمفهوم الكيل بمكيالين.[2]

---

(١) نعوم تشومسكي. **الحادي عشر من أيلول: الإرهاب والإرهاب المضادّ**/ ترجمة ريم منصور الأطرش. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. – ١٨٠ ص.

(٢) انظر: دافيد راي غريفين. **تقرير لجنة ٩/١١: التجاهُلات والتحريفات**. – بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م. – ٣٨١ ص. وانظر له، كذلك: **شُبُهات حول ٩/١١: أسئلة مقلقة حول إدارة بوش وأحداث ٩/١١**. – بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. – ٣٢٦ ص.

ومع هذا، فإن ما أرمي إليه يظلُّ قائمًا، من وجود قدر واضح من الجهل بما نحن عليه، علينا أن نتعامل معه من منطلق أننا نحن نتحمَّل قدرًا من التقصير في بيان واقعنا ومنطلقاته، في زمان سهل فيه جدًّا الاتهام، ولقي هذا الاتهام ما يعضِّده من حوادث، حتى لقد أصبح المسلم اليومَ ملاحَقًا في كل مكان من الجهة الغربية من الكُرة الأرضية، ثم الجهة الشرقية، بالنسبة لنا، كذلك. وإذا ما كان هذا المسلم "ملتزمًا"، كانت ملاحقته أقوى. وهذا وضع يحتاج إلى جهود في اقتلاعه من جذوره، التي مرَّت علينا على مدار التاريخ. والاقتلاع سهل طرحًا، صعب جدًا واقعًا، ذلك أنه هناك من يسعى إلى تثبيت هذه الصورة، بل إلى تأجيجها.

وعلى مستوى النشر أضحت المكتبة العربية تعُجُّ اليوم بالكتب والأبحاث والدراسات، بعضها أصيل، وبعضها مترجَم. وهذا بحدِّ ذاته خطوة طيِّبة في مسيرة الاقتلاع، يضاف إليها الرغبة في اللقاءات، وعقد الندوات، والتبادل الثقافي، في مواجهة علمية لهذا الوضع غير العادي؛ إذ إن الموقف يقتضي منا المواجهة، لا المجابهة.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة الخامسة: التحَقُّق

الصحوة الإسلامية لن تكون صحوة بحقٍّ إن لم تعتمد على العلم، في العودة إلى الله تعالى، ذلك أن أمور العبادات، التي هي مؤشِّر قوي من مؤشِّرات الصحوة، إنما تقوم على التوقيف، أي أنها محسومة بالنصوص الشرعية من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ. ومن مؤشِّرات الصحوة، القائمة على العلم، الحرص القوي والمبارك على معرفة سنَّة المصطفى ﷺ والعمل بها.

وسنَّته – عليه الصلاة والسلام – تخضع لمعيار دقيق، في التحقُّق من النص "المتن"، والرواة "الرجال"، وما يعرف عندنا بمصطلح الحديث. ومن تتبُّع الأحاديث، في متنها وسندها، يصحَّح الحديث أو يحسَّن أو يضعَّف، والضعيف لا يعمل به. ولذا ربَّما نجد بعض الممارسات العبادية، التي اعتمدت على حديث ضعيف، فينبِّه المحقِّقون لها، ويسعون إلى عدم التركيز على الاستمرار فيها، على أنها ممارسات عبادية مستقاة من سنَّة المصطفى ﷺ. وأقرب مثال على ذلك العبادات في شهر رمضان المبارك، لاسِيَّما الطريقة التي تتم بها صلاة القيام "التراويح"، من حيث عددُ ركعاتها، أو تسليماتها، ومن حيث الشفع والوتر، ومن حيث دعاء القنوت، ونصُّه، والإطالة فيه، والتقصير منه.

ويحكم ذلك كله ما كان قدوتنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ يقوم به، إلى درجة التعرُّف على نصِّ الدعاء، من حيث التصريح أو

التلميح، ذلك أن المدعو – سبحانه وتعالى – يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو تعالى يدرك مغزى الدعاء، من خلال ما ينويه الداعي، فلا مجال للتصريح الذي قد يخرج عن السمت المطلوب في مقابلة الله تعالى، وترك الأمر له سبحانه، في مسألة شمول الدعاء، ومن ثم الإجابة. والعلم الشرعي يطمئن الداعي في مسألة الاستجابة، وأسرار تأخُّرها من الله تعالى.

والتحقُّق هذا يؤدِّي إلى السلامة في العبادات، كما يؤدِّي إلى السلامة في الاعتقاد كذلك. ولذا فلا بدَّ من التوكيد على أهمية التحقُّق والتحقيق، والبعد عن الاستعجال في أمور العبادات كلِّها، لاسِيَّما في النوافل والسنن، وكذا في الطريقة التي تمارس بها العبادات جميعها. والتحقُّق والتحقيق مؤشِّر حسن وإيجابي لقيام الصحوة الإسلامية، التي تهتمُّ بالصفاء. أما الانجراف المتسرِّع، والعاطفة الزائدة، والحماس المبالغ فيه، فإن هذه ليست معايير صادقة لصحوة مباركة، بل إنها تسيء إلى الإسلام أيَّما إساءة، ذلك أن ما ينتج عنها من ممارسات تصدرُ عن أشخاص محسوبين على الإسلام، وينظر إلى الإسلام من خلالهم.[1]

والتحقُّق يأتي من العلم، والعلم يحتاج إلى وقت وصبر وإصرار. والعلم الشرعي، كما ثبت، لا يؤخذ من الكتب وحدها، بل لا بدَّ

(١) انظر: محمود محمد الناكوع. **الصحوة الإسلامية وقضايا للحوار**. – لندن: دار ابن قدامة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. – ١٨١ ص. – (سلسلة قضايا ومواقف؛ ٣).

من استمرار فكرة التتلمُذ على العلماء، بأي صورة من صور التتلمُذ. ولذا لا بدَّ من استمرار المرابطة على العلماء، ومعهم، في حلقات العلم والدرس، وفي مقاعد الدراسة، وفي أي شكل من الأشكال، التي تكفل حصول طالب العلم على الإجازة في التحقُّق. والكتب، وحدها، قد لا تؤدِّي إلى العلم، الذي يحصل بالإجازة، ويخلط في الفهم مَن يعتمد على الكتب وحدها.

ومن التحقُّق يتبيَّن لنا، نحن العامّة، أننا كنا نقوم ببعض الممارسات في العبادات، ربَّما تكون داخلةً في مفهوم الغلوِّ في الدين، لم تكن ثابتة عن المصطفى – عليه الصلاة والسلام -، وليست بالضرورة من سنَّته ﷺ، فنجد أنفسنا نستغني عنها بروح طيِّبة، بعيدة عن التردُّد، ذلك أننا ننظر إلى الممارسات العبادية على أنها عبادات، وليست عادات، ولذا يسهل علينا التأقلُم مع أي تغيير قد يحصل في عبادة من العبادات، بعد أن يثبت من خلال التحقُّق حتمية هذا التغيير. وكلَّما زاد التحقُّق في الأمَّة ارتفع مؤشِّر الصحوة الحقَّة، ولذا فإن هذه دعوة إلى مزيد من التحقُّق ومزيد من التحقيق، والبُعد، بالتالي، عن الغلو والتطرُّف في فهم هذا الدين.[1]

(١) انظر: يوسف القرضاوي. **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرُّف**. – الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٢هـ. – ٢٣١ ص. – (سلسلة كتاب الأمَّة؛ ٢).

وفي مجال الفكر، تزخر المكتبة العربية الإسلامية بعدد غفير من الإنتاج العلمي والأدبي، القديم والحديث، المؤلَّف باللغة العربية وغير العربية، من لغات المسلمين واللغات الأخرى، من مؤلِّفين عرب ومسلمين ومستشرقين وأجانب. ومن هذه المؤلَّفات المُنشأ ابتداءً، ومنها المنقول من لغات أخرى، لاسِيَّما منها ما ظهر باللغة العربية. وكنا في زمن غير طويل نتسابق إلى معرفة عنوان الكتاب واسم المؤلف، وذلك كان لقلَّة المنشور، ولقلة الموزَّع من المنشور، ولتعذُّر الاتصال السريع بحواضر الإسلام الحديثة، للتعرُّف على ما لديها من إنتاج. ولذا جاء شيء من التكرار والازدواجية في التأليف.

ولنأخذ، على سبيل المثال، موضوعًا مثل **الصحوة الإسلامية**، حيث نجد جملةً من المؤلَّفات في هذا الموضوع، وهذا مدرك، لكن الذي يحيِّر القارئ، الآن، تكرار عنوانات الكتب في هذا الموضوع الممثَّل به، فهناك جملة من الكتب التي تحمل العنوانَ نفسَه، وإن أُلحقت بعنوانات فرعية. ولذا يصعب ضبطُها، مع احتمال اختلاف طريقة المعالجة والمحتوى والتحليل، وغيرها من أغراض التأليف، إذ إن المكتبة الإسلامية تفتقر إلى أدوات الضبط الوراقي "الببليوجرافي"، الذي يُعين على سرعة الوصول إلى الكتاب، مهما كان الشبه موجودًا في جملة من الكتب، ويعين على عدم الازدواجية في التأليف وعدم تكرار المعلومات، ومن ثَمَّ توجيه الجهود إلى الإبداع في الموضوعات نفسها، وفي موضوعات قريبة منها.

والـذي ينبغـي التوقُّـف عنـده، في متابعـة الإنتـاج العلمـي، في المجـالات الإسـلامية طغيـانُ المؤلفـات الفكريـة، الـتي تنظـر إلى الإسـلام نظـرة شموليـة وتحـاول تثقيـف النـاس، وتقـريبهم مـن الإسلام، من حيث كونُه صالحاً لكل زمان ومكان، وأنه دين واقعي شمولي، يبتعد عن التركيز على مجال حيوي، على حساب مجال حيوي آخر، كالروح في مقابل المادة. وهذا من حيث كونُه تقريبًا للدين من الناس أمر طيِّب، ولكنه طغى على التأليف في العلم الشرعي، الذي يعين على التطبيق، ويركِّز على الجانب العملي من هذه الواقعية، والشمولية، والصلاحية لكل زمان ومكان.

ويدخل في هذا المجال الولوج في حوارات بين مفكِّرين مسلمين حول قضايا معاصرة، وموقف الإسلام منها، مما يدعوه البعض بالعصرانية، من منطلقات عقلية تُرشد الباحث في النهاية إلى الجوازية في التطبيق، وتُعيد الإيمان إلى القلب فقط، دون التوكيد القوي على مسألة التقيُّد بالأحكام، من أركان الإيمان، إلى أركان الإسلام، إلى المعاملات، وهكذا من السلوكيات الخاصّة بالفرد المسلم، ذكرًا كان أم أنثى، والعامّة في المجتمع. وليس في هذا حجرٌ على الفكر، أو على العقل، لكن تغليبَهما على العلم الشرعي هو الأمر الذي يحتاج إلى نظر، وليس المجال هنا مجال الموازنة بين الطرفين، إذ إنهما غير مختلفين

ويلتقيان، فالإنسان مُطالب بإعمال فكره، وتحكيم عقله، فيما لم يأت به النقل.[١]

ومع هذا الكمِّ الهائل من الإنتاج العلمي في المكتبة الإسلامية، لم تستطع المكتبات السيطرة عليه، ومع هذا فإن مستوى الإنتاج العلمي يُعَدُّ قاصرًا، بالمقارنة بالإنتاج العلمي في العقائد والمذاهب والتيَّارات الأخرى، الموجودة على الساحة، كما أن مستوى الضبط الوراقي "الببليوجرافي" يُعَدُّ كذلك قاصرًا، بالمقارنة بما توصَّلت إليه الثقافات الأخرى، عن القدرة إلى الوصول السريع للمعلومة.

--- --- ---

(١) انظر: محمد السيِّد الجليند. **منهج السلف بين العقل والتقليد: تصحيح مفاهيم، درء شبهات، ردُّ مفتريات**. – القاهرة: دار قُباء، ١٩٩٩م. – ٢٠٠ ص.

openkandl.com

الوقفة السادسة: النقل والترجمة (١)

من وسائل نقل المعلومة الشرعية نقلُها لغويًا، من اللغة العربية إلى لغات أخرى، يتحدَّثها المنتمون للإسلام، وغير المنتمين إلى الإسلام، ولكنهم لا يتحدَّثون العربية. وتسمَّى هذه الوسيلة بالنقل والترجمة، وأوَّل ما يتبادر إلى الذهن في مسألة ترجمة المعلومة الشرعية نقل القرآن الكريم من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى. ولكن القرآن الكريم كلامُ الله تعالى، المنزَّلُ من عنده، بواسطة **جبريل** – عليه السلام – إلى **محمَّد بن عبدالله** النبيِّ الأمِّيِّ ﷺ. وكلام الخالق تعالى لا يرقى إليه كلامُ المخلوقين، من حيث الصياغةُ والمعنى والمدلولُ والاستمرارُ، ولذا اصطلح المسلمون على أن يطلقوا على عملية نقل القرآن الكريم،[1] من اللغة العربية إلى أي لغة أخرى، ترجمة **معاني** القرآن الكريم، ويتحرّج المسلم العالِم من إطلاق الترجمة على القرآن الكريم، دون أن تكون مقيَّدةً بترجمة المعنى.[2]

وكان هذا مخرجًا حفِظَ للقرآن الكريم مكانته بلغته العربية، ودفع كثيرين إلى تعلُّم اللغة العربية، ليستطيعوا تذوُّق

---

(١) انظر: مصطفى صبري. **مسألة ترجمة القرآن**. – القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٥١هـ.

(٢) انظر: محمَّد سليمان. **كتاب حدث الأحداث في الإسلام: الإقدام على ترجمة القرآن**. – (القاهرة): مطبعة جريدة مصر الحرة، ١٣٥٥هـ.

القرآن الكريم، باللغة التي نزل بها. كما أنه كان مخرجًا لتعدُّد ترجمات المعاني في اللغة الواحدة، على أيدي أبنائها وغير أبنائها، بل ربَّما تعدَّدت ترجمة المعاني باللغة الواحدة على يد مترجم واحد، حيث يتبيَّن له دائمًا التقصير الذي يعتريه، مع كل ترجمة للمعاني. وهذا من طبع البشر.[١]

ومن العجيب أن ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات اللاتينية، وإلى اللغات الأوربية الأخرى، كالجرمانية، قد بدأت على أيدي غربيين غير مسلمين. ورغم كثرتها إلا أن أبرزها ترجمة **جورج سيل** إلى اللغة الإنجليزية، التي وضع لها مقدِّمة، قرَّر فيها أن **محمَّدا** ﷺ هو الذي ألَّف القرآن الكريم، وإن كان لم يستبعد أنْ يكون قد عاونه أحد من حكماء عصره من اليهود والنصارى! وهذه فرية استشراقية قديمة، ولكنها أثَّرت كثيرًا على تأثير القرآن الكريم على قرَّاء ترجمة المعاني باللغة الإنجليزية دون شك. بل إن التأثير قد امتدَّ إلى قرَّاء ترجمة المعاني باللغة الفرنسية، عندما تبنَّى المستشرق **كازميرسكي** نقل ترجمة المعاني من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية، بالأسلوب الذي ترجمها فيه **جورج سيل**.

---

(١) انظر: محمَّد صالح البنداق. **المستشرقون وترجمة القرآن الكريم: عرض موجز بالمستندات لمواقف وآراء وفتاوى بشأن ترجمة القرآن الكريم مع نماذج لترجمة تفسير معاني الفاتحة في ست وثلاثين لغة شرقية وغربية**. — ط ٢. — بيروت: دار الآفاق الجديدة، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م). — ٣٣٨ ص.

وأعقب ذلك نقولٌ أخرى عن هذه الترجمة. وكان هذا التأثير سلبيًا، ولعلَّه كان مقصودًا لصرف الآخر عن التعلُّق بالإسلام، من خلال تقديم المعلومة الشرعية الصحيحة، بالترجمة الدقيقة للمصدر الأول لهذه المعلومة. هذا في ضوء غياب جهود المسلمين القادرين على تقديم المعلومة الصحيحة، من خلال الترجمة الدقيقة لمعاني القرآن الكريم.

وإذا كان هذا الخلل قد اعترى نقل المعلومة الشرعية، من مصدرها الأوَّل إلى اللغات الأخرى، فمِن المتوقَّع أن يعتري الخللُ نقل السنَّة النبوية الشريفة عن طريق الترجمة، لاسِيَّما أن في الحديث الشريف ما هو صحيح، وما هو حسن، وما هو ضعيف، وما هو موضوع. والضعيف والموضوع يختلفان في درجة قبولهما، على ما بيَّنه علماء السُّنَّة النبوية المطهَّرة (مصطلح الحديث)، لما فيهما من المعلومات الشرعية، ما لم يثبت عن المصطفى ﷺ، كما أن فيهما من المعلومات الشرعية ما لا يمكن أن يُعَدَّ من المعلومات الشرعية، لتعارُضه مع النقل الصحيح والعقل السليم. وكان هذا مجالا رحبًا للخلط في نقل المعلومة، مما كان مجالا رحبًا لتشويه الإسلام وسيرة المصطفى ﷺ، وبالتالي، للمعلومة الشرعية المستقاة من المصدر الثاني الرئيسي من مصادر التشريع الإسلامي، سنَّة المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.

وإن تكن هذه الوقفة قد ركَّزت على تشويه المعلومة الشرعية، من خلال تشويه مصدريها: الكتاب والسنَّة، فإن

المعلومة الشرعية في الجانب الآخر لا تزال مجالا واسعًا لخدمة أبنائها لها، ليس من خلال النقل اللغوي فحسب، بل من خلال وسائلَ حديثةٍ شتَّى.

وما دمنا ندور حول إسهامات غير المسلمين في التأثير على المعلومة الشرعية، فإن هذا التأثير لم يقتصر على ترجمات معاني القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بل إن الدراسات حول هذه المعلومة تتعذَّر اليوم على الحصر.

وقد سعى الأستاذ الدكتور **فؤاد سزكين**، مدير **معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية** بفرانكفورت بألمانيا، إلى حصر ما كُتِبَ حول الموضوع باللغة الألمانية فقط. وكنت أراه يجمع البحوث والدراسات، يستعيرها من مكتبات أوروبا العامّة والجامعية والبحثية، ثم يقوم بتصويرها وتجليدها، والاحتفاظ بها في مكتبة المعهد. وقد أصدر لذلك قائمة وراقية "ببليوجرافية"، تزيد على خمسة مجلدات، ضخمة بمعاونة الباحث البوسنوي **إسماعيل بالتش**، وآخرين.

ولا يزال الأستاذ الدكتور **فؤاد سزكين** يواصل هذا المشروع، ويصدر قائمة وراقية "ببليوجرافية" جديدة بين الفينة والفينة. ولا يزال يجمع هذه الدراسات في الدوريات العلمية، ومن الكتب ووقائع المؤتمرات، حتى تكوَّنت عنده في مكتبة المعهد ثروةٌ علمية من هذه الدراسات، ربَّما كانت مجالا للدرس والتحليل، لاسِيَّما أن معظمها جاء من المستشرقين الألمان، أو ممَّن أرادوا البحث

والدراسة والكتابة باللغة الألمانية، التي تُعَدُّ لغةَ الاستشراق، وبالتالي، تُعَدُّ اللغات الأوروبية الأخرى عالةً عليها.

ويمكن القول، دون تعميم: إن هذه الدراسات حول المعلومة الشرعية لا تكاد تخلو من الخلل المتعمَّد في مجمله، وغير المقصود في قليل منه. ذلك أن هؤلاء الدارسين للمعلومة قد افتقدوا إلى عاملين مهمَّين، **أوَّلهما**: الافتقار إلى الانتماء إلى هذه المعلومة، وما تمثِّله من ثقافة، وبالتالي أعطاهم عدم الانتماء الجرأةَ في الحكم والتحليل، دون النظر إلى التأثير، ولو كان هذا التأثير سلبيًا.

و**العامل الثاني**: هو افتقارهم إلى السيطرة على اللغة العربية، التي جاءت بها المعلومة الشرعية، وهي، هنا، اللغة العربية، رغم محاولاتهم الجادَّة للسيطرة عليها.

وهذا **العامل الثاني** أخفُّ بكثير من العامل الأوَّل، ولكن تأثيره بدا واضحًا، من خلال اضطرارهم إلى الاستعانة بالعرب، يقرءون لهم وينسخون ما يكتبون، وحرصوا على أصحاب الخطوط الجميلة، في ضوء تعميم المطبعة ووسائل الاستنساخ الحديثة.[1]

---

(١) من أمثال: أحمد تيمور، وأحمد زكي، ومحمَّد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي، والشيخ طاهر الجزائري، وحسن حسني عبدالوهَّاب، وابن أبي شنب، وعبدالحيّ الكتَّاني، ومحمَّد رشاد عبدالمطلِّب، وفؤاد سيِّد، وكوركيس عوَّاد، وقاسم الرجب، وأحمد عبيد، وحمد الجاسر، والقاضي إسماعيل الأكوع، وإحسان عبَّاس، ومحمَّد يوسف نجم، وصلاح الدين المنجِّد، وإبراهيم شيُّوخ، ومحمَّد المنوني، ومحمَّد إبراهيم الكتَّاني، والعابد الفاسي، =

ولا شكَّ في أن هذا الموقف من المعلومة الشرعية كان له تأثيره السلبي عليها في مجتمع هؤلاء الدارسين، إذ أسهم هذا الأسلوب في إبعاد الناس عن المعلومة الشرعية الصحيحة، وبالتالي أسهم في ضعف فهم الإسلام، أو في سوء فهمه، مما كان له تأثيره على الإقبال على هذا الدين، الذي يقوم على المعلومة الشرعية الصحيحة.

--- --- ---

=

والفقيه التطواني، ومحمود محمَّد الطناحي. انظر: محمود محمَّد الطناحي. **مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن الصحيف والتحريف**. – القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م. – ص: ٢٢٣ – ٢٢٤.

obeikandl.com

الوقفة السابعة: النقل والترجمة (٢)

الحديث عن ترجمات معاني القرآن يقود إلى تلك التي انطلقت على أيدي المنصِّرين والمستشرقين منذ سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م من الأديرة والكنائس، ثم تعاقبت الترجمات أيضاً على أيدي المستشرقين، دون تدخُّل مباشر من الأديرة والكنائس والمنصِّرين، ولكن بقدر من الإيحاء الذي أملته العودة إلى الترجمات السابقة. وقد أحسن **مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنوَّرة**، حينما عقد ندوة عن هذه الظاهرة، كانت تقويماً للماضي، وتخطيطاً للمستقبل، أُلقيت فيها بحوث قيِّمة.[1]

ومن البحوث التي قُدِّمت في الندوة بحث تقويمي للأستاذ الدكتور/ **محمَّد مهر علي** بعنوان: **ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون: لمحات تاريخية وتحليلية**،[2] وجدته بحثاً ماتعاً، خرج فيه المؤلِّف بعدد من النتائج، بعد استعراضه لعدد من الترجمات، مثل الترجمة الفرنسية **لأندريه دو ريار**، والترجمة اللاتينية الثانية **لمراتشي**، والترجمة الإنجليزية **لجورج سيل**، وكلها كانت في

---

(١) مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. **ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم: تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل**. – المدينة المنورة: مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٢) محمَّد مهر علي. «ترجمة معاني القرآن الكريم والمستشرقون: لمحات تاريخية وتحليلية». – ٥٠ ص. في: **ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم: تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل**. – المرجع السابق –.

القرن الحادي عشر الهجري، قبل منتصف القرن السابع عشر الميلادي، ثم ترجمة ج .م. **رودويل**، وترجمة **إي. إتش. بالمر**، وكلاهما في القرن الثالث عشر الهجري، النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ثم ترجمة **آربري** في القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي،. ومن أهمِّ ما خرج به الأستاذ الدكتور/ **محمَّد مهر علي**، بعد استعراضه لهذه الترجمات، بلغات مختلفة، وبأزمان مختلفة كذلك، الآتي:

• لجوء المستشرقين إلى الترجمة الحرفية للعبارات الاصطلاحية، وهذه يستحيل ترجمتها من القرآن الكريم إلا بالمعنى.(١)

• إعطاء معنى واحد للكلمة في كل مكان، بصرف النظر عن السياق والموضوع، مع تجاهُل المعاني الأخرى للكلمة.

• نسبة المفردات العربية إلى جذور أجنبية قدر الاستطاعة، وإعطاؤها معانيَ غيرَ مألوفة.

• استخدام مصطلحات نصرانية في الترجمة قدر الإمكان.

• التحريف المباشر في المعنى.

---

(١) انظر: أمين مدني. المستشرقون والقرآن: ليس المستشرقون وحدهم هم الذين تعثَّروا في مجال اللغة. – **المنهل**. – مج (٤) (١٣٩٦/٤هـ – ١٩٧٦/٤م). – ص ٢٤٤ – ٢٢٨.

• إساءة الترجمة باستخدام معانٍ غير صحيحة للمفردات والعبارات.

• إعطاء معانٍ خيالية وخاطئة، نتيجة لعدم فهم اللغة العربية.

• إدخال عبارات تأويلية وتفسيرية في نصِّ الترجمة، والأصل أنها تكون في الهامش، أو يُخطر أنها ليست من أصل النص المترجَم.

• إدخال تعليقات وتفسيرات فاسدة في الهوامش، مبنيَّة على الإسرائيليات والروايات الموضوعة، الموجودة في بعض كتب التفاسير.[1] وقد وجد المترجمون كمًّا من هذه الإسرائيليات، والأخبار الموضوعة، مع الأسف، في التفاسير العربية للقرآن الكريم، سردها بعض المفسِّرين من باب الأمانة العلمية، دون أن يكلِّفوا أنفسَهم عناء التعليق عليها، مما جعلها مرتعاً للمترجمين وغيرهم، ممن يبحثون عن جوانب نقصٍ في الدين القويم.

(١) انظر: موريس بوكاي. الأفكار الخاطئة التي ينشرها المستشرقون خلال ترجمتهم للقرآن الكريم (٢). – **الأزهر**. – ع ٩ (رمضان ١٤٠٦هـ – مايو يونيو ١٩٨٦م). – ص ١٣٦٨ – ١٣٧٥. وانظر، أيضًا: موريس بوكاي. الأفكار الخاطئة التي ينشرها المستشرقون خلال ترجمتهم للقرآن الكريم. – **العروة الوثقى**. – مج (٢٨) (شتاء ١٤٠٧هـ). – ص ٤٦ – ٥٥.

• عمد المترجمون إلى الإضافة على النص الأصلي أو الحذف منه عند الترجمة.

• عمد المترجمون، كذلك، إلى تبديل العبارة أو الكلمات في الأصل عند الترجمة.

• وقام بعض المترجمين بإعادة ترتيب القرآن الكريم، بحسب نزول السور، أي الترتيب الزمني للنزول، وأدَّى هذا إلى تجزئة بعض السور إلى (فقرات) حسب ما زعموه أنه يطابق السياق فيه المعاني.[١]

ويعطي المؤلِّف أمثلةً لكلٍّ هذه الفقرات الاثنتي عشرة، من خلال تحليل عميق من مؤلِّف مطَّلع عميق كذلك، مما يستدعي المزيد من التركيز على الترجمات المؤصَّلة لمعاني القرآن الكريم من فرق علمية، ذات دراية تامَّة باللغتين والتفسير والأحكام، والقرآن الكريم يستحقُّ ذلك وأكثر.

--- --- ---

(١) انظر: أحمد فؤاد الأهواني. تغيير ترتيب المصحف. – زاوية: ما يقال عن الإسلام. – **الأزهر**. – مج ٤١ (١٣٨٩هـ). – ص ٣٠٥ – ٣٠٩.

openkanal.com

الوقفة الثامنة: الحِفظ (١)

تذكر كتب التراث أن يهوديًّا، حسن الثوب، حسن الوجه، طيِّب الرائحة، حضر مجلس الخليفة العبَّاسي **عبدالله المأمون**، وكان، حينها، أميرًا، فتكلَّم اليهودي، فأحسن الكلام، فسأله الخليفة سؤالا عارضًا: لِمَ لا تُسلم؟ فكانت إجابة الرجل أنه باقٍ على دين آبائه، إلا أنَّ عرضَ الخليفة على اليهودي ترك في عقله أثرًا، ودعاه إلى التفكير الجادِّ في هذا العرض.

ومن أجل أن يقتنع اليهودي بهذا العرض، قام بحيلة، لعلَّها فريدة من نوعها، إذ عَمِد إلى نسْخ ثلاث نُسَخٍ من **التوراة**، وحرَّف فيها، وهو ينسخها، وعرَضها للبيع في كنيسة، فاشتُريت النسخ الثلاث، ثم عمد إلى نسْخ ثلاث نُسَخٍ من **الإنجيل**، وحرَّف فيها، فعرضها للبيع، في بيعة، فاشتُريت، دون الانتباه إلى ما طرأ عليها من تحريف. ثم نَسَخ ثلاث نُسَخٍ من **القرآن الكريم**، فعرضها للبيع في سوق الورَّاقين، بعد أن حرَّف فيها، فكان المُسلم المشتري يقلِّب النسخة، ويقرأ فيها، ويتبيَّن له التحريف، فيرمي بها. وهكذا الحال مع بقيَّة النُّسخ.

وبعد أن تبيَّنت له عنايةُ المسلمين بكتاب الله تعالى أسلم، وعاد بعد سنة **للمأمون** في مجلسه، يتحدَّث في الفقه، فيحسن

الكلام، فتذكَّره **المأمون**، فسأله عن سرِّ إسلامه، فقصَّ عليه هذه القصَّة.[١]

أفلا تكون هذه الحادثة مصداقًا لما ورد في كتاب الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر ٠٩)، كما يقول سفيان بن عيينة، بينما لم يبقَ من التوراة والإنجيل إلا ما استحفظوا منهما، وكانوا عليهما شهداء. ولا يكفي، هنا، حفظه نصًّا مخطوطًا، أو مطبوعًا بين دفتي كتاب، بل إن الحفظ هنا يشمل حفظه في الصدور على تتابُع الأيَّام، ثم حفظه بتطبيق ما فيه من أحكام، وتصديق ما فيه من أخبار، ماضية ولاحقه.

• ومن مظاهر حفظ القرآن الكريم في الصدور أننا نجد من المسلمين من يحفظه عن ظهر قلب، بالتلقين والدراسة في حلقات تحفيظ القرآن الكريم، أحيانًا في مجتمعات مسلمة، لا تتحدَّث، بالضرورة، اللغةَ العربية.

• ومن مظاهر حفظ القرآن الكريم في الصدور أننا نشهد، سنويًا، تلك المسابقات، المحلية والدولية، لحفظ كتاب الله وتلاوته، تضطلع به هذه البلاد الطيبة ممثَّلة في **وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد**، التي تستحقُّ الإشادة والتقدير على الجهود المبذولة، للوصول إلى الأهداف من هذه

(١) وردت هذه القصَّة لدى: ابن الجوزي في: **المنتظم**. — ١: ٥١، ولدى: البيهقي في: **دلائل النبوَّة**. — ٧: ١٥٩ — ١٦٠، ولدى: القرطبي في: **التفسير**. — ١٠: ٥ — ٦.

المسابقات المباركة. كما تضطلع به فعاليات ثقافية واجتماعية أخرى، مثل **الجنادرية**: مهرجان التراث والثقافة السنوي، الذي يقيمه الحرس الوطني، ومسابقات تحفيظ القرآن الكريم بين المعوْقين، وغير ذلك. ومسابقات مماثلة في البلاد العربية والإسلامية. والسعيد من وفَّقه الله تعالى إلى حفظ أكبر قدر ممكن من كتاب الله تعالى، حفظًا في الصدر وعلى الواقع. والسعيد، أكثر، من وفَّقه الله تعالى إلى حفظ كتاب الله تعالى كاملا، حفظًا في الصدر، وعلى الواقع.

ومن أجمل الأشياء، وكثير من الأشياء جميلة، أن تستمع لفتىً يافع يتلو كتاب الله تعالى، حفظًا عن ظهر قلب. ويسأله مقدِّم البرنامج عن مدى حفظه، فيفيد أنه يحفظ كتاب الله تعالى كاملا، ولله الحمد، أو نصفه أو ثلثه أو ربعه، أو أقلَّ من ذلك. وتقوم على مظاهر حفظ كتاب الله تعالى جمعيَّاتٌ خيرية لحفظ القرآن الكريم، وتشرف عليها **وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية**. وما يماثلها في البلاد الإسلامية، وغيرها، ويقوم عليها رجال نحسبهم من خيرة المتحمِّسين لكتاب الله، وكلنا متحمِّسون لكتاب الله، ومنهم من ترك أثرًا طيبًا، ثم عاجله الأجل، فبقي أثره ممتدًا مستمرًا، لعلَّه من الصدقة الجارية، التي بقيت له في أعماله الخيِّرة، ومن هؤلاء، وهم كثير، الشيخ **زكي داغستاني**، والشيخ **عبَّاس مقادمي** – رحمة الله تعالى عليهما – في **مكَّة المكرَّمة**، والشيخ **عبدالقادر عطية**

– رحمه الله تعالى – في **جدة**، والشيخ **صالح البليهي** – رحمه الله تعالى – وهو صاحب جهود طيِّبة في مجال حلقات حفظ القرآن الكريم بمنطقة **القصيم**،

وكذا منهم الشيخ **عبدالرحمن الفريان** – رحمه الله تعالى – بمنطقة الرياض، الذي كان يتابع حلقات تحفيظ القرآن الكريم، في نطاق الجمعية الخيرية التي يشرف عليها، وغيرهم من أولئك الرجال في الحرمين الشريفين في **مكَّة المكرَّمة** و**المدينة المنوَّرة**، وفي المساجد الأخرى، في مناطق البلاد كلِّها، ممَّن لا تحضرني أسماؤهم. ولست هنا أحصر الأشخاص، فهم كثير، ولله الحمد والمنَّة، في شمال البلاد وشرقها وجنوبها ووسطها. مما يكوِّن ظاهرةً حسنةً، كانت موجودةً من قبل، ثم تضاعفت وانتشرت، وازدادت أعدادًا في الحلقات، وفي المنتظمين لها.

• ومن مظاهر حفظ كتاب الله تعالى تلك الجهود في خدمة كتاب الله تعالى، من تفسير وترجمة معانٍ إلى لغات عدَّة، مما سبق التعرُّض له. ولا تُنسى هنا جهود **إدارة البحوث العلمية** بقيادة سماحة الوالد الشيخ **عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز** – رحمه الله تعالى –، ثم بقيادة سماحة الشيخ **عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ**، مفتي عام المملكة، ورئيس هيئة كبار العلماء، التي تضطلع بمراجعة ترجمات معاني القرآن الكريم. وجهود **الأزهر الشريف**، والهيئات الإسلامية الأخرى في بلاد المسلمين جميعها.

• ومن مظاهر حفظ كتاب الله تعالى إدخال النص القرآني، أوَّلا، في الحاسب الآلي، ضمن برنامج محدَّد يُعين، بعد عون الله تعالى، على الوصول إلى الكلمة والآية والسورة، بصورة سريعة جدًا، تفوق ما كنا نعمله عندما كنا نستعين **بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمَّد فؤاد عبدالباقي** – رحمة الله تعالى عليه .. بل إن برامج الحاسب الآلي الناطقة مكَّنت من نسخ قراءات القرَّاء، الموجودين والمتوفَّين، مما يعين على القراءة الجيِّدة بعد الاستماع الجيِّد.

• ومن مظاهر حفظ كتاب الله تعالى استخدام الفضائيات، للوصول إلى أكبر عدد ممكن من المستمعين والمشاهدين، وتخصيص إذاعات، وكذلك قنوات تلفزيونية، للقرآن الكريم في **المملكة العربية السعودية**، وبعض الدول العربية والإسلامية. ولا تقتصر هذه الإذاعات والفضائيات على التلاوات، ولكنها تبثُّ برامجَ علميةً، مستقاة من كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.

• بالإضافة إلى مظاهر حفظ كتاب الله تعالى، التي جرى ذكر شيء منها، يبرز مظهر من هذه المظاهر، يتمثَّل في قيام صرح ضخم يهتم بطباعة المصحف الشريف. وكان المصحف الشريف في طباعته شبهَ مقتصر على مؤسسات النشر التجارية، داخل البلاد العربية والإسلامية، تشرف على طباعته جهات وهيئات ولجان دينية موثوق بها. وربَّما جرت طباعته خارج العالم الإسلامي، بل إنه

طبع في أوربا، عندما بدأت الطباعة باللغة العربية في أوروبَّا، رغم تحريم المجامع المسكونية لطباعته في أوروبا.[١]

• ولا تزال مؤسَّسات النشر التجارية تطبع المصحف، وتوزِّعه. ومع أنها سعيدة بذلك معنويًا، حيث تسهم في نشر كتاب الله تعالى، إلا أنها لا يمكن أن تغفل جانب الربح المادِّي، الذي يتيح الاستمرار في طباعة المصحف. وهذا أمر مفهوم، ما دام أن هامش الربح معقول، بحيث لا يكون الهدف من الطباعة تجاريًا بحتًا، دون مراعاة الربح المعنوي، الذي يكون مدعاة للبركة والخير، بعيدًا عن القياس المادِّي المحسوب بالقرش والريال.

• ومن هذا المنطلق الأخير، وهو النظر إلى الربح المعنوي المتمثِّل في الأجر العظيم على كل حرف من كتاب الله تعالى، يُقرأ من مصحف من المصاحف، وبعيدًا عن النظرة التجارية المادِّية، والنظر إلى المتاجرة الرابحة مع الله تعالى، أُنشئ **مُجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة**، حيث يُسهم، منذ بدايات الأربع مئة الهجرية، الثمانينات الميلادية من القرن العشرين، بطباعة المصحف الشريف وتوزيعه، إسهامًا ملحوظًا. ويزيد الموزَّع منه حتى الآن على مئتي مليون نسخة في أحجام مختلفة. والرقم هنا غير دقيق، لأنه يزيد. وهو

(١) انظر: قاسم السامرَّائي. الطباعة العربية في أوروبا. – ص ٤٥ – ١٠٨.
في: ندوة تاريخ الطباعة العربية حتَّى انتهاء القرن التاسع عشر، ٢٨ – ٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦هـ/٢٢ – ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٥م. – أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٦م. –.

بهذا يطبع نسخًا موثوق بها، أكسبته سمعة عالية بين المسلمين. وهو مشروع قصد من ورائه حفظ كتاب الله تعالى، بنشره، مجَّانًا، بين المسلمين. ولا نسبة تذكر لما يباع من المصحف الشريف، إذ لا تتعدَّى خمسةً بالمئة (٥٪)، وخمسة وتسعون بالمئة (٩٥٪) توزَّع مجَّانًا، داخل البلاد وخارجها. هذا بالإضافة إلى إصدارات أخرى، مثل ترجمات معاني القرآن الكريم لعدَّة لغات، شرقية وغربية، وإصدار القرآن الكريم مجوَّدًا ومتلوًّا في أشرطة، ثم الاهتمام بسنة المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، والعناية بالندوات والمحاضرات والمؤتمرات، ذات العناية بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ورسوله **محمَّد بن عبدالله** ﷺ.[1]

• وهكذا تتعدَّد مظاهر حفظ كتاب الله تعالى مادَّةً ومعنىً، وتزداد، ويتطوَّر الموجود. ويتحقَّق – بإذن الله تعالى – الوعد الذي قطعه الله تعالى في حفظ كتابه.

حفظ السنَّة:

• وهناك شباب يافعون يحفظون السنَّة النبوية المطهَّرة بأسانيدها، من كتب الصحاح. وهذه خطوة جميلة مهمَّة، رغم ما

(١) ما تم توزيعه في شهر ربيع الآخر من سنة ١٤٢٦هـ الموافق يونيه ٢٠٠٥م، عن طريق **مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف**، فاق مليونين ونصف المليون إصدارًا من إصدارات المجمَّع في اثنتين وأربعين (٤٢) لغة. وهذا يشمل المصاحف والتسجيلات، ونحوها من وسائل نشر كتاب الله تعالى. انظر: صحيفة **الجزيرة** ع ١١٩٦٤ (الجمعة ١٤٢٦/٥/٢٤هـ الموافق ٢٠٠٥/٧/١م). – ص ٥.

قد يقال إن وسائل حفظ المعلومات قد تطوَّرت كثيرًا، وأضحت كتب الصحاح، وغيرها من كتب الأحاديث، توضع جميعها في أسطوانة مدمجة واحدة، وتباع الآن في سوق المعلومات أسطوانةً واحدةً، تحتوي على مئة وثمانية وعشرين مجلَّدًا من كتب الحديث، وغيرها من كتب التراث. وربَّما أكثر من ذلك. ولا تعارُضَ مع تقنية المعلومات، نقلا وحفظًا، والحفظ في الصدور، إذ الحاجة إلى الحفظ تظلُّ قائمة في ثقافتنا، ومطلبًا حيويًا مهمًّا، لعله يُعدُّ سمةً من سمات هذه الثقافة الشامخة. وهنيئًا لمن وفَّقه الله إلى حفظ كتب الله، وقدْر من أحاديث رسول الله ﷺ، ثم حفظ التراث العربي، شعرًا ونثرًا.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة التاسعة: الحِفظ (٢)

الحفظ أسلوب تعليمي تربوي له اعتباره في الثقافة الإسلامية. وهو مراعىً منذ فجر الإسلام في **مكَّة المكرَّمة والمدينة المنورة**، والأمصار الإسلامية الأخرى. فالقرآن الكريم يقوم على الحفظ في الصدور، حفظَ تعبُّد لله تعالى، يختلف عن حفظ الأشعار والروايات والأخبار والآثار، مع أهمية حفظها.

وكثيرٌ من أبناء المسلمين يحرصون على حفظ كتاب الله تعالى، ثم حفظ أحاديث المصطفى ﷺ، ولذا يُشجَّع هؤلاء الأبناء والبنات، ويُحفَّزون لذلك، وتقام لهم المسابقات المحلية والإقليمية والدولية. ولقد وقفتُ على نماذج من مدارس تحفيظ القرآن الكريم في **الباكستان**، التي يكثُر فيها الحفَظة، ويؤمُّون الناس في الصلاة بعامة، وفي صلاة القيام في شهر رمضان المبارك، داخل الباكستان وخارجها، في أوروبَّا وأمريكا. والأصل في جميع هذه الجهود أن تقتصر على هذه الخدمة الجليلة لكتاب الله تعالى، دون الولوج في "متاهات" التوجُّهات الحركية، التي تفقدها الهدف من إقامتها، وبالتالي تعرِّضها، ربَّما، لما لا تُحمد عقباه.

وهناك دعوة تربوية وافدة، تسخر كثيرًا من الحفظ، في العلوم كلِّها، الإنساني والاجتماعي والتطبيقي. وربَّما كانت النظرة التربوية في إلغاء الحفظ من العملية التربوية مقصودًا به

بعض العلوم، وليس كلَّ العلوم، إلا أنه رسخ في أذهان بعض اليائسين من العلوم الشرعية، فعمَّموا النظرية على كل العلوم.

وأودُّ هنا إثارة انتباه الداعين إلى نبذ الحفظ إلى عدم التعميم؛ لأن هناك علومًا وفنونًا لا ينفع معها إلا الحفظ، ومنها القرآن الكريم، ثم أحاديث المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، ثم نفائس الأدب، لاسِيَّما أبيات الشعر وقصائد العرب، التي هي ديوان العرب، فحبَّذا لو تخلَّص هؤلاء من النظرة التعميمية، ثم خصَّصوا تلك العلوم أو الفنون التي لا ينفع معها الحفظ.

وهذه وقفة عارضة، في خضم هذه الوقفات، حول حفظ كتاب الله تعالى، مصداقًا للآية الكريمة السابق ذكرها. أقول هذا لأذكِّر بعض الأكاديميين، من التربويين وغير التربويين، وبعض كتَّاب الصحافة من غير التربويين، الذين لا يرون جدوىً من الحفظ. وتراهم يلومون هذا التوجُّه، معمِّمين هذا اللوم على جميع المناهج، وجميع المواد التي تدرَّس في التعليم العامّ في البلاد الإسلامية.

ويتبعهم في هذا أولئك الذين ينظرون إلى هذا الأمر بسطحية، ويتهجَّمون على الحفظ بسطحية، كذلك ، ويرون أن الحفظ بهذا الإطلاق، لا يخدم الإبداع. وليتهم كانوا دقيقين، فلاموا الحفظ في موادَّ ومناهجَ لا تحتمل الحفظ ولا تتطلَّبه. أما التعميم فإنه ليس من المصلحة، وإنما هو ناتج عن تأثُّر مباشر ببعض النظريات التربوية، الذين لا يكوِّن الحفظ، عندها، مؤشِّرًا ثقافيًّا، والتي

ينادي بها بعض التربويين، ممَّن لا ينتمون إلى هذه الثقافة، التي لا تدعو إلى الحفظ في كل شيء. ولكنها تؤكِّد الحفظ في أمرين مهمَّين، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والرسول ﷺ يدعو صراحة لمن حفظ عنه حديثًا ونقله عنه كما هو، فربَّ مبلَّغ يعي أكثر من وعي الناقل له.[1] ومع هذا فللناقل أجر النقل، بغضِّ النظر عن قدراته الذهنية في وعي المضمون. وحول هذا يقول الدكتور **جلال أمين**: «إني لا أنوي بالطبع محاولة استقصاء ما يجب "حفظه" وما يستحسن "فهمه". ولكن أريد فقط أن أزعم أن هناك من عناصر المعرفة اللازمة، ما قد لا يفيد إنفاق الوقت على "فهمه" ومن المفيد "حفظه"».[2]

ويضيف **جلال أمين** قوله: «هناك بعض الأمثلة الأخرى على بعض عناصر المعرفة التي لا بد بالطبع من الإصرار على فهمها، ولكن قد يكون من المفيد جدًا، بالإضافة إلى ذلك، حفظها عن ظهر قلب. من أوضح الأمثلة على هذا أن يحفظ المسلم أجزاء من القرآن الكريم، والمسيحي أجزاء من الإنجيل. والفهم والاستيعاب مطلوبان في كلا الحالين بالطبع، ولكن بعض الحفظ أيضًا مطلوب ومفيد.

---

(١) ونص الحديث: «ربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع». رواه البخاري في كتاب الحجِّ، باب الخطبة أيام منى. حديث رقم ١٦٢٥.

(٢) انظر: جلال أمين. **عصر التشهير بالعرب والمسلمين: نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١**. – القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤م. – ص ٥٧.

يُضاف إلى ذلك، أيضًا، حفظ بعض النماذج الرفيعة من الأدب والشعر، حيث لا بدَّ هنا طبعًا من الفهم والاستيعاب، ولكن كم أفاد الحفظ هنا في صقل لغة مَن يقوم من يقوم بالحفظ وتعميق إحساسه بجمال هذه اللغة. لقد ظلَّت أجيالٌ متتالية من الإنجليز تحفظ أجزاء من شكسبير عن ظهر قلب، وكذلك فعلت أجيالٌ متتالية من الفرنسيين مع راسين، ومن الألمان مع جوته..إلخ. وكم أفادت أجيال من المتعلِّمين المصريين والعرب من حفظ القرآن الكريم وشعر المعلَّقات، وغيرها من عيون الشعر والنثر العربي، في الارتفاع بمستوى التعبير والفصاحة، والتمكُّن من الحصول على الكلمة المناسبة بالضبط للمعنى المقصود. فضلاً عما تتضمَّنه درجة معقولة من الحفظ من تمرين مفيد للنفس على ممارسة فضيلة الصبر والانضباط».[1]

--- --- ---

(١) انظر: جلال أمين. **عصر التشهير بالعرب والمسلمين: نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١**. – المرجع السابق. – ص ٥٧.

obeikandl.com

الوقفة العاشرة: الشفافية

الشفافية مصطلح حادث، من حيث التركيزُ عليه واستخدامُه. ولم نكن نركِّز عليه، من قبل، في الطروحات الثقافية والفكرية، بهذا القدر الذي يطرح عليه الآن. والمهمُّ في هذه الوقفةِ الشفافيةُ في الإفصاح عن المعلومات، التي كانت تُعَدُّ زمنًا مضى في خانة السرية. وعندما درستُ المعلومات دراساتٍ تمهيديةً، وجدتُّ أن هناك عواملَ أربعةَ، ينبغي مراعاتُها في التعامل مع المعلومة، درستُها على بحث أحد خبراء المعلومات، واسمه **روبرت هيز**، وكان يحاضِر في جامعة **كاليفورنيا في لوس أنجلس**. ولا أزال احتفظ بورقته هذه منذ سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، حيث ركَّز على هذه العوامل الأربعة وهي: ملكية المعلومات، وسرِّيتها، وخصوصيتها، وأمنها.[١]

وفي ضوء هذا التوجُّه نحو الشفافية ستكون سرِّية المعلومات ضعيفةً، من حيث حجمُ المعلومات الخاضعة للسرِّيَّة، وإن ظلَّت هناك حاجة إلى قدرٍ من السرِّيَّة، لدواعٍ سياسية واجتماعية وأمنية. والذي يلاحظ أن استخدام السرِّية، أو الرغبة فيها، يطبَّق، أحيانًا، بل غالبًا، على معلومات لا تدخل، من حيث مضمونُها، في

---

(١) انظر:

R. M. Hayes. "Issues in Developing the Infrastructure of National Information Systems: A Key Note Presented to the First International Conference. Cairo, Egypt, December 13-15. 1982.

openkandil.com

هذا المفهوم، إذ لا يترتَّب على إفشائها أي ضرر ظاهر. والعجيب أن يُعمَّم على الناس، أو فئة منهم، "خطابٌ سرِّيٌّ»، والتعميم لا يتَّفق مع السرِّيَّة، بل قالوا في هذا المجال: إنك إذا أردت أن تشيع معلومة فأحطْها بالسرِّيَّة. وبالتالي فإن النزوع إلى الشفافية أصبح في التعامُل مع المعلومة، والتعامُل مع المستفيد من المعلومة.

وعليه، فإن الشفافية، مع كونها مطلبًا، إلا أنه يظل هناك حاجة إلى قدر من الاحتفاظ بالمعلومة، حتَّى على المستوى الشخصي، تلك المعلومة ذات العلاقة المباشرة بخصوصية الأشخاص، وتلك المعلومة ذات العلاقة بالأمن الوطني، وتلك المعلومة التي يرغب صاحبُها في الاستحواذ عليها، ليس لأنها سرِّية، ولكن لأنها ملكٌ له، تُعَدُّ من ثروته، التي يحتفظ بها لنفسه. ولذا ظهرت اتفاقيَّات الملكية الفكرية على أنها إحدى مقوِّمات السعي نحو هذا المفهوم العلمي، الذي يُنظَر إليه على أنه مفهوم جديد، وإن لم يكن جديدًا، وإنما هو امتداد لمحاولات سابقة، وإنما الجديد فيه هو التسمية فقط. والذي يُتحفَّظ عليه، هنا، في طرح مفهوم الشفافية، أن يتعدَّى الأمر من مجرَّد الإفصاح عن المعلومة، وهي أمر معنوي، إلى الإفصاح عن المحسوس في حياة الناس.

وهذا ما رأيته في طرح إحدى الكاتبات، التي بدأت تستخدم مصطلح **الشفافية** لتقيس فيه، أو من خلاله، المجتمع المسلم بعامَّة، والمرأة المسلمة بخاصَّة، مما يقتضي **الشفافية** في مناقشة هذا الأمر، لئلا نُؤخذ بهذه الشفافية، التي يُراد لها، من هذه

الكاتبة وصويحباتها، أن تخرج عن الطور، كما خرجت عنه مَن قبلها، وستخرج عنه مَن بعدها.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة الحادية عشرة: الأكاديمية

الأكاديمية، كما تُعرَّف، هي النظرة العلمية الموضوعية المجرَّدة للأشياء، ومعالجة القضايا، أو المسائل أو المشكلات، معالجةً بعيدة عن العاطفة. والمشكلة التي تحتاج إلى هذا المفهوم عن الأكاديمية هي أن التجرُّد من العاطفة في معالجة القضايا، أو المشكلات أمر يكاد يكون مستحيلا في عالم اليوم، إذ تتدخَّل الانتماءات في النظرة إلى المشكلة. ويصعب عمليًا، لا نظريًا، عدم تدخُّل الانتماء. فهل إدخال الانتماء، أي انتماء، في النظر إلى المشكلة يبعد معالجتها عن الأكاديمية؟ وهل يعني دخولُ الانتماء في المعالجة دخولَ العاطفة بالضرورة؟ إذا قلنا بهذا سلَّمنا بأن الانتماءات مسائل عاطفية، لا أكاديمية، وعندها لن يكون للأكاديمية مكان في معالجة القضايا والنظر إلى المشكلات.[1]

وقد تعوَّدنا، في النظرة الأكاديمية، أن نحتكم، من أجل الخروج بحلٍّ للمشكلة إلى معيار، أو مجموعة معايير، هذه المعايير إمَّا من تطوير البشر، ماضيًا أو حاضرًا، أو أنها مرسومة توقيفًا عن طريق الوحي المنزَّل على الرسل – عليهم السلام –. والمعايير المرسومة، توقيفًا بالوحي هي، عندنا، المعايير الكاملة، ولذا نعتدُّ بها عند قياس أيِّ حلٍّ لأيِّ مشكلة. ولكن الذين لا يؤمنون بهذه

(١) يرى عالم الاجتماع المشهور **ماكس فيبر** أن التجرُّد العلمي التامَّ، وعدمَ التحيُّز، غيرُ ممكن، عند اختيار موضوع الدراسة.

openkandil.com

المعايير؛ بسبب استقائها من الوحي، يحكمون علينا بأننا نظرنا إلى المشكلة نظرة انتمائية، وسعينا إلى حلِّها بموجب هذه النظرة الانتمائية، وكأننا بهذا قد حكَّمنا العاطفة، في نظرتنا إلى المشكلة، وليس هذا صحيحًا بحال.

انظروا، مثلا، إلى قاضٍ يحكم بحكم المعيار الشرعي على أحد معارفه، والحكم هذا ليس في مصلحة هذا القريب، والقريب ينظر إلى القاضي نظرةً فيها رجاء بأن تتدخَّل القرابة، مثلاً، في حجم الحكم، لا في الحكم نفسه. ولكن القاضي، بحكم أنه مُحاسب وحده يوم الجزاء والحساب، يصدر حكمه بناء على المعيار الشرعي، وليس بناء على الانتماء القبلي، أو العرقي، أو الأُسْري. وقد يحتاط القاضي؛ لئلا يُتَّهم، أمام الناس، بأنَّه خلط في حكمه بين المعيار الشرعي، والانتماء الأُسْري، أي خلط بين الموضوعية والعاطفة. ولا ينتظر منه ذلك أمام الله تعالى، ثم أمام وليِّ الأمر.

ولا يكاد يوجد شخصٌ، يحكم على أمر من الأمور، دون الانطلاق من معيار يستند إليه، فإن كان هذا المعيار منطقيًا، عقليًا، متجرِّدًا، اتَّسم الحكم بالموضوعية، أي بالأكاديمية، دون التركيز على انتماءات هذا الحكم. وإن يكن المعيار أقربَ إلى القلب والأحاسيس والمشاعر والوجدان، اتسم الحكم بالعاطفية، دون التركيز على انتماءات هذا الحكم.

والمراد الوصول إليه أن الانتماءات ليست معيارًا للحكم على قضية بأن هذا الحكم موضوعي أو عاطفي؛ لأن محاولات إبعاد الأحكام عن الانتماءات لا تستقيم بحال، فاقتنعتُ بأن الانتماء لازمةٌ من لوازم الحكم على الأشياء.

الأكاديمية تبرز في التريُّث والدراسة والبحث والاستشارة، والتعرُّف على الحيثيات والظروف، التي تحيط بالمشكلة قبل الخوض في البحث عن البدائل والحلول، ثم اختيار أفضل هذه البدائل، حلاً مقترحًا للمشكلة، وأقول "حلاً مقترحًا»؛ لأنه ليس، بالضرورة، الحلَّ الوحيدَ للمشكلة، فالأكاديمي، بموجب هذا البحث والدرس والإحاطة، يخرج بحكم مجرَّد موضوعي، وعند التنفيذ نجد أن الشخص، أو الفريق المناط به التنفيذ، يعجب من هذا الحلِّ، بحكم أنه، مع تجرُّده وموضوعيته، لا يتناسب، بحال، مع الحال التي سينفَّذ فيها، أو عليها، الحلُّ، ولكنه يُستخدَم للاستئناس به، ويضيف المنفِّذون عليه، ويحذفون منه.

وإذا كان هذا قد يوحي بجفاف النظرة الأكاديمية للأشياء، فإن هذا هو الصحيح، إذ المتوقَّع من النظرة الأكاديمية أن تكون خالية من المرونة، أو التسيُّب في النظر إلى الأشياء، وهي تُعرض، ثم يجرى عليها التحوير والتعديل والتبديل، وتطوَّع حسب البيئة التي ستنفَّذ فيها نتائجُ النظرة الأكاديمية.

ويبدو أن هناك نبرةَ استهجان للأكاديمية، في بعض المواقف، عندما يقال لك: لا تكن أكاديميًا صرفًا، ويطلب منك تلطيف

النظرة الأكاديمية بشيء من النزول إلى الواقع، الذي قد لا يُرضي الأكاديمي، الذي يسعى إلى أن يرفع من الواقع إلى الأفضل، لا أن ينزل إليه، ويستسلم لبعض ظروفه، القابلة للتطوير، أو النهوض بها إلى الأفضل.

ولعلَّ من مسؤولية الأكاديميين أن يُصرِّوا على أكاديميتهم، مع شيء من الواقعية، التي لا تملي التنازُل عن النظرة الأكاديمية. ولكنها تحتِّم صبغها بصبغة انتمائية، تجعلها قابلة للتنفيذ، في البيئة التي يُراد لها أن تعيش فيها، ولو أدَّى هذا الإصرار إلى شيء من المعاناة، فإنه كلَّما زادت المعاناة دلَّ ذلك على قوَّة الإصرار.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة الثانية عشرة: السياسة

من العجب أن يُغفَل البعد السياسي، سببًا من أسباب الهوان، وتزعَّم هذا جمع من الناس، جعلوا آخر ما يخوضون به هو السياسة، وجعلوا هذا منهجًا لهم في التعامل مع الحياة كلِّها. ومن العجب أيضًا أن يُحمَّل البعد السياسي كلَّ الأسباب، والحكمة، التي يبدو عليها قسط كبير من الصدق، تنصُّ على: «كما تكونون يولَّى عليكم». وهذا أيضًا منهج يسعى إلى إصلاح الأساس، فإذا صلُحت الرعيَّة صلُح الراعي، كما أنه إذا صلُح الراعي صلُحت الرعيَّة، ولكن جمعًا يُغلِّب نظرةً على أخرى.

ولقد مرَّ على المسلمين، في الزمن المعاصر، ما يوحي بصلاح الراعي، الذي لم ينتظر صلاح الرعيَّة، فكان أن تسرَّع الراعي في مشروع الصلاح والإصلاح، دون وجود القابليَّة، على ما يظهر، فدُلقت قنانُ الخمر في الشوارع، وقطِّعت أيدي السارقين، في بلد معظم أهله فقراء، بل وأُعدِم من اتُّهم بالردَّة. كلُّ هذا والأساس (القاعدة) لم يكن مستعدًّا لمثل هذا الاستعجال، مما أدَّى إلى فشل هذا المشروع، وتنحية صاحبه عن السُّلطة.

إن تطبيق الشريعة في مجتمع غُيِّبت عنه أوليَّات الشريعة، ليس مجرَّد فورة قائمة على تشخيص سطحي لمدى قابلية الناس لتطبيق الشريعة. ثم إن تطبيق الشريعة على الناس قد لا يقتصر على مظاهر التطبيق من خلال إقامة الحدود، وإنما الحدود، فيما

يظهر، تأتي لاحقًا، عندما يترسَّخ الدينُ في النفوس، وإن طال الزمن.

ويتردَّد لدى المتابعين أن الخليفة الراشد الثاني **عمر بن الخطاب** – رضي الله تعالى عنه – لم يُقم حدَّ السرقة في زمن من زمان خلافته، وهو ما سمي **بعام المجاعة**، لأنه رأى، بحكمته وفقهه وعلمه، أنه ليس الزمان الذي يقام فيه الحدُّ، ليس لأن القابليَّة لإقامة الحدِّ غير متوافرة، ولكن لأن الظرف الآني لم يسمح بذلك. فكانت الحكمة البالغة التي تُعدُّ تشريعًا للمسلمين؛ لأنها سنة الخليفة الراشد **عمر بن الخطاب** – رضي الله تعالى عنه ..

وعليه، فإن الاستعجال غيرُ مطلوب، والتركيزَ على المظاهر قد يضرُّ أكثرَ ممَّا ينفع، مع عدم إغفال القول المأثور: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فهو قول مأثور مقبول لذلك السلطان الذي يحكم بالقرآن، وهذا عامل مهمٌّ في قبول هذا القول المأثور. إن أمام الدعاة والعلماء مشروعًا في إعادة الناس – من الأساس – إلى الدين، إلى الأساس، دون الاستعجال الذي أضرَّ بالدعوة والدعاة ضررًا كان له أثر واضح في الوصول إلى النتائج المرجوة.

ولئن كثُر الدعاة فإنها كثرةٌ تفتقرُ إلى قدر من العلم والحكمة، مهما ردِّدَ من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والآثار الحكيمة، ولكنَّها مع هذا لم تستقرَّ في نفوس بعضٍ من الدعاة، الذين قد يكونون قد غلَّبوا العاطفة في هذا المجال، الذي

يحتاج إلى تغليب الحكمة والعقل والرويَّة. وهذا طرح قد لا يعجب بعض المهتمِّين والمعنيِّين، وقد يُساءُ فهمه، ولكنه مع هذا محاولة للتقليل من التعليق على النتائج، بدلا من تلمُّس الأسباب، وما آثار الإلحاد والاستعمار والاستشراق والتنصير إلا نتائج لأسباب دبَّت في جسم الأمَّة. ومع هذا يظل التفاؤل هو المهيمن على هذا المسار، مهما بدت الأمور في ظاهرها غيرَ مشجَّعة على التفاؤل.

--- --- ---

obeikandl.com